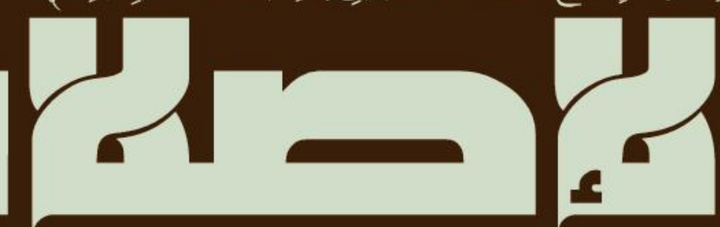
﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾



لا يُصلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّة إلاّ مَا أَصْلَحَ أَوَّلَـهَا

52

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

السنة العاشرة. العدد الثاني والخمسون: المحرم/صفر 1438هـ الموافق لـ سبتمبر/أكتوبر 2016م



كيف تكون قويا؟

تغريب المدرسة



مناظرة ابن عباس رضي الله عنه للخوارج فوائد وعبر

فؤاد عطا الله

الحسد والعين

د.سعود الدعجان

الفرقان بين المتصدقين والمرابين

د.عبد الرزاق البدر

السعر: 200دج رقم الإيداع القانوني: 3623. 2006 ISSN: 1112.6825

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونَسْتعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ ﴾ [سورة آل عمران].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾ [سورة النساء].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [سورة الأحزاب].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُها، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وكُلَّ ضَلاَلَةٍ في النَّارِ.

■■■



مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

المدير
توفيق عمروني

رئيس التحرير
عز الدين رمضاني

أعضاء التحرير:
عمر الحاج مسعود
عثمان عيسي
نجيب جلواح
د.رضا بوشامة

التصميم والإخراج الفني:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع

الطباعة:
مطبعة الديوان

عنوان المجلة:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع
التعاونية العقارية (الإصلاحات) ـ قطعة
(44) عين النعجة (بئر خادم) ـ الجزائر

الهاتف والفاكس: 32 08 52 (023)
(النقال): 92 99 06 (0559)
التوزيع (جوال): 08 53 62 (0661)

البريد الإلكتروني:
darelfadhila@hotmail.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:
www.rayatalislah.com



مدير المجلة

كيف تكون قويًّا؟

لـمَّـا طغَى على حياتنـا اليومَ الماديَّاتُ صـار الاعتمادُ على الأسـباب الظَّاهرة غالبًـا على النَّاس؛ ولا يُفهَمُ معنى القويِّ إلاَّ مَن قَدر على هذه الأسـباب وملكَها؛ مع أنَّ القوَّةَ الحقيقيَّةَ هي في تعلُّق القلب بالله وحدَه خالق الأسـبَاب والمسَـبَّبات، وهو معنَى التَّوكُّل على الله؛ لذا قَال بعضُ السَّلَف: «مَن سرَّه أن يكونَ أقوى النَّاس فلْيَتَـوكَّل علـى الله»؛ وقـد كَثُر في القُرآن ذكـر التَّوكُّل على الله والأمـر به، وجُعِل شـرطًا في الإيمـان ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المائدة]، وهو من أوصاف المؤمنين اللازمة ففي سبعَة مواطن في القرآن: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٢٢﴾ [آل عمران].

فالسَّاعي لجَلْب منفعَة أو دفع مضرَّة ليسَ له طريقٌ أفضَل من تعَاطي أسبَابه وإن كانَت ضـعيفةً؛ فمريم عليهَا السَّـلامُ ـ وهي نُفساء ـ أُمرت بهَزِّ الجذْع لتَسْقُط عليهـا الثِّمار لتَطْعَمَهـا، وأُمر أيُّوب عليه السلام ـ وقَد أنهكه المرَضُ ـ أن يضـربَ الأرضَ برجله لينبع منها الماءُ ليستَشفيَ به؛ لكن المطلوبَ أن يتعلَّق القَلبُ ويعتمدَ على الله لا علَى الأسباب؛ فـ«التَّوكُّلُ عملُ القَلب» ـ كما قال الإمام أحمد ـ، فلا قول اللِّسان، ولا عمل الجوارح يجعل العَبد متوكِّلا، وإنَّما قلبُه.

وقد دار نقاشٌ طويلٌ قديمًا مع الَّذين فرَّطُوا في اتِّخاذ الأسـبَاب وزعمُوا أنَّهم مُتَوكِّلُون على الله، فذُمُّوا وسُـمُّوا مُتواكلين، وأمَّا اليومَ فغلَب على النَّاس الالتفاتُ إلى الأسـبَاب؛ وخـفَّ التَّعلُّـق بـالله وتفويضُ الأمـر إليه، وهو أمارَةٌ على ضـعف الإيمان وهشاشة التَّوحيد في القُلوب.

وبالتَّوكُّل على الله تُقْهَر المصـاعبُ وتتَلاشـى المتاعبُ، وتمتَلئُ النَّفسُ سكينةً في أحلَك المواقف وأشدِّها؛ لأنَّ القلبَ المعلَّقَ بربِّ السَّماء والأرض لا يُزعجه شيءٌ من شدائد الدُّنيَا مهما عظُم؛ ففي البخاري (4564) قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: «كانَ آخـرَ قَـول إبراهيم حينَ أُلقي في النَّار: حسْـبيَ الله ونعْمَ الوَكيـل»؛ ونفسُ الكلمة قَالهـا نبيُّنَـا ﷺ لمَّا أُخبر أنَّ المشـركين قَد جمعُوا حشُـودَهم لقتَالـه، قال تعَالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران]، ففـي الوقـت الَّذي تكادُ تنْخَلـعُ القُلوبُ من هَـوْل الموقف، تطمئنُّ قلوبُ المتوكِّلين، بل ويزيدُ إيمانُهم؛ لأنَّ الوكيلَ هُو رَبُّ العزَّة القَائـل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق : 9] أي أنَّه كافٍ مَن توكَّل عليه؛ فأيُّ قوَّة تقفُ في وجه المتوكِّل.

وليُتنبَّه أنَّه لا يسـتَقيمُ التَّوكُّل إلاَّ ممَّن كانَ حسَـنَ المعتَقَد؛ قَال ابنُ تيميَّة: «لا يصـحُّ التَّوكُّل ولا يُتصوَّرُ من فيلسُـوف، ولا من القَدريَّة النُّفاة القَائلين بأنَّه يكونُ في مُلكه ما لا يشَـاءُ، ولا يسـتَقيمُ أيضًـا منَ الجهميَّة النُّفَاة لصـفَات الرَّبِّ جلَّ جلالُـه، ولا يسـتَقيم التَّوكُّلُ إلاَّ من أهل الإثبات»؛ وقال ابـنُ القيِّم: «فكُلُّ مَن كانَ بالله وصفاته أعلَم وأعرَف كانَ توكُّله أصَحَّ وأقْوَى».



السنة العاشرة ـ العدد الثاني والخمسون:
المحرم ـ صفر 1438 / سبتمبر ـ أكتوبر 2016



4

تغريب المدرسة



34

مناظرة ابن عباس رضي الله عنهما للخوارج ـ فوائد وعبر





غلاف العدد السابق





قواعد النشر في المجلة

- أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحرَّر المقال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكر صاحب المقال اسمه الكامل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.

المراسلات على عنوان المجلة باسم رئيس التحرير:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع
التعاونية العقارية (الإصلاحات) ـ قطعة (44)
عين النعجة (بئر خادم) . الجزائر
الفاكس: 32 08 52 (023)
البريد الإلكتروني:
darelfadhila@hotmail.com

سعر النسخة: (200 دج)
الاشتراك السنوي: (1500 دج)





تغريب المدرسة

التحرير

انطبع في أذهان كثير من التَّغريبيِّين فكرةٌ غريبةٌ، وهي أنَّ إقحامَ مادَّة التَّربية الإسلاميَّة في المنظومة التَّعليميَّة هو السَّببُ في نموِّ ظاهرة العنف والإرهاب، وعابوا على المدرسة الجزائريَّة مثلَ هذا الإدراج، ورأَوا أنَّ الإصلاحَ في الاستغناء عن مثل هذه المادَّة بالكليَّة، أو في التَّقليل من حجمها السَّاعي والتَّهوين من شأنها والوضع من معاملها في الامتحانات؛ وأن في مادة التربية المدنية عوضا عنها، مع تغليب اللُّغة الفرنسيَّة؛ وهم بهذا يرمون إلى تغريب المدرسة و(عَلْمَنَتها).

إنَّ وظيفةَ المدرسة ـ كما يظهر لنا ـ: هو العملُ على تكوين التِّلميذ عقليًّا ومعرفيًّا وحتَّى بدنيًّا، فإن كانت مُمارَسَة الرِّيَّاضة البدنيَّة حتمًا لازمًا، فليسَ من الحكمة أبدًا أن نُغفلَ تكوينَه الرُّوحيَّ الَّذي ينبغي أن يكونَ مواكبًا لتكوينه البَدَني؛ لأنَّه إذا بلغَ مرحلةَ المراهقَة حيث تثور النَّزواتُ وتندفع الغرائزُ والشَّهواتُ لا يمكنُ تهذيبُها ولا دفعُ غوائلها إلاَّ إذا زوَّدْنا التِّلميذَ بمعارفَ دينيَّة تُرسِّخُ في نفسه شرفَ العلم والفَضيلة، وجمالَ العفَّة والحياء؛ وأنَّ له ربًّا يطَّلع عليه ويراقبُه؛ كما أنَّ هذه المعرفةَ الدِّينيَّةَ الصَّحيحةَ الَّتي يتلقَّاها في مدرسته تجعله في صيانة عن المعاني الفاسدة والتَّأويلات الباطلة الَّتي يمكن أن يتلقَّاها من جهات أخرى، وتُكوِّنُ عنده جدارَ حماية سميكًا يمنَعُ من أن يتسلَّلَ إلى قلبه أفكارُ الإرهاب والتَّكفير والغُلوِّ الَّتي تموج بها وسائطُ الاتِّصال وشبكةُ الإنترنت.

فالدَّرسُ الدِّينيُّ عاملٌ أساسٌ في تكوين شخصيَّة التِّلميذ المتكاملة، ويُتيح له فرصةَ امتلاك الأدوات الَّتي تساعده على فَهْم الحياة ووُلوج غمارها وخوض خُطوبها دون خوف أو تَردُّد؛ لأنَّه مسلَّحٌ بالعلم والإيمان.

وعلى هذا؛ لا أظنُّ أنَّ ناصحًا أو مُصلحًا يُريد الخيرَ للبلاد والعباد يدعونا إلى أن نجعَلَ التَّربيةَ الدِّينيَّةَ مادَّةً ثانويَّةً بالإمكان تجاوُزُها أو الاستغناءُ عنها، ولو أنَّ هؤلاء التَّغريبيِّين اتَّهموا المنهجَ المقرَّرَ بأنَّ فيه نقصًا أو خللاً، أو اتَّهموا المدرِّسَ في علمه أو فهمه، لكان اتِّهامُهم وجيهًا؛ وأمَّا أن يتعسَّفوا ويوجِّهوا أصابعَ الاتِّهام إلى مادَّة هي من أهمِّ موادِّ الهويَّة فهو عينُ الظُّلم والإساءة.

وإنَّنا نعتقد أنَّه لو أخذ التِّلميذُ الدَّرسَ الدِّينيَّ من المعلِّم المؤهَّل وَفقَ منهج سليم مبنيٍّ على فهم صحيح، لنَشَأَ عندنا جيلٌ متينُ الأخلاق، قويُّ العَزيمَة، صحيحُ الدِّين؛ صالحٌ في نفسه، ومُصْلحٌ لغَيره؛ ونرى اليوم أنه مع قيام مادة التربية الدينية في مدارسنا إلاَّ أنَّه لم يسلم شبابنا من رياح الشَّهوات والشُّبهات الَّتي تعصف به من كلِّ جانب فأضعفت دينَه وقلَّلت حياءَه وأضاعَت عليه كثيرًا من قيَمه، فباتَ يعاني الانفصامَ في الشَّخصيَّة والتَّذبذبَ في الهويَّة، والسَّيرَ في دُروب الحيَاة على غير معالم واضحة، فكيف إذن لو أهملنا هذه المادة، ولم يأخذ التلميذ حاجته منها لتحفظه من هذه المزالق والمهالك؟

فلو تكاثفت جهود المهتمِّينَ بالشَّأن التَّربوي على ترسيخ المعاني الدِّينيَّة الصَّحيحة في نفوس النَّاشئة عبر مراحل التَّعليم، ما وُجدَ بيننَا أطبَّاءُ يخونون مرضاهم، ولا مُهندسون يَغُشُّون في

مشاريعهم، ولا مسؤولون يختلسون أموالاً ليست لهم وهلمَّ جرًّا... في سلسلة من نكبات أخلاقيَّةٍ رهيبة تُعاني منها الأمَّةُ عناءً شديدًا.

ذلك؛ لأنَّ النُّفوسَ إذا ترسَّخت فيها معاني الإيمان امتلأت جوانبُها بخشية الله والخوف منه ومراقبته في السِّرِّ والعَلَن وأثمر ذلك إتقانَ العمل والإحسانَ إلى الخلق والبُعدَ عن كلِّ أنواع الفساد في الأرض، والسَّعيَ في كلِّ ما يعود بالخير والنَّفع على الوطن والمجتمع، وهي ملامح الشَّخصيَّة الَّتي تطمح المؤسَّساتُ التَّربويَّةُ الحديثةُ في إيجادها.

إنَّ منهجَ التَّربية والتَّعليم لكلِّ أمَّة إذا لم يُبْنَ على مقوِّمات شخصيَّتها من دين ولغة ووطن، ولم يُرَاعِ معالمَ هويَّتها، فهو يسير في اتِّجاه مُغايرٍ لمصلحة الأمَّة، ويُقدِّمُ خدمةً جليلةً لأعدائها؛ نعم؛ ليس عيبًا أن نستفيد من تجارب الأمَم الَّتي تقدَّمت في التِّكنولوجيا والمعرفة والتَّنظيم وطُرُقِ التَّدريس، لكن ليسَ على حساب الثَّوابت والأصُول؛ فإنَّ الجيلَ الَّذي لا تُغرَس فيه أهمُّ مقوِّمات شخصيَّة أمَّته ينشأُ نشأةً عَرْجَاءَ، فقد ينال علومًا ومعارفَ مُختلفةً؛ لكن لا نأمن معه أن يَفشُوَ فيه الإلحادُ والخيانةُ، ويكثُرَ فيه الإجرامُ والانحرافُ، ويَسهُلَ عليه الإفسادُ والعُدوان؛ لأنَّ الرَّادعَ ـ وهو الوازع الدِّيني ـ قد أُهمل في العمليَّة التَّربويَّة.

أمَّا طموحُنا وطموح الآباء جميعًا من التَّربية والتَّعليم أن يتكوَّن عندنا جيلٌ مُعظِّمٌ لدينه وعقيدته، مفتَخِرٌ بلسَان قومه، حريصٌ على نَفْع وطنه، يحملُ نظرةً صحيحةً للحياة؛ ومُتحلِّيًا بالفَضائل والأعمال الصَّالحات.

وههنا أمرٌ مهمٌّ يجبُ التَّنبُّه له وهو أنَّه جميلٌ أن نسمَعَ أصواتًا مطالبةً على إبقاء النُّصوص الشَّرعيَّة (آيات وأحاديث) في الكتب، والتَّنديدَ بحذف شيءٍ منها؛ لكن ما أحسَنَ أن ترتفع الأصواتُ مطالبةً بألاَّ تُصرَفَ معاني هذه النُّصوص إلى معانٍ جديدة لم يعرفْهَا أهلُ العلم قديمًا ولا حديثًا، حتَّى لا يتلقَّى الطُّلابُ فهمًا للدِّين منكوسًا ومحرَّفًا مقلوبًا على غير مُراد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومراد رسوله ﷺ؛ إذ يعتَقد بعضُ القائمين على أمر التَّعليم من المغلوبين فكريًّا والمهزومين ثقافيًّا أمام حضارة الغَرب أنَّ سَبَب نكسَتنا وضعفنا هو التَّمسُّكُ بالإسلام على فهم السَّلف وعلماء الأمَّة؛ وأنَّ المخرَجَ للَّحاق برَكْب الحضارة هو في إعادة صياغة الإسلام صياغةً جديدةً وتفسيره تفسيرًا حداثيًّا مُتوافقًا مع العلمانيَّة ومفاهيم اللائكيَّة.

وهؤلاء التَّغريبيُّون أُتُوا من جهة أنَّ عقولَهم مُشبَعَةٌ بثقافة غريبة عن مجتَمعهم، وألسنَتَهم لا تُحسنُ لغةَ قومهم، وهو ما يحجُبُهم عن إدراك عَظَمة الإسلام، والوصول إلى حقَائق شريعته النَّاصعَة، فضلاً عن التَّلذُّذ بكلام الله تعالى والشُّعور بكماله وحكمَته وتذوُّقِ بلاغته العربيَّة، لذا لا يجدون حرجًا في الطَّعن في هذا الموروث المُعظَّم؛ والتَّهوين من شأن لُغته العربيَّة، مع أنَّ اللُّغةَ ـ كما يقول الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «هي المقوِّم الأكبَر من مقوِّمات الاجتمَاع البَشري، وما من أمَّة أضاعَت لُغَتَها إلاَّ وأضاعَت وجودَها، واستتبعَ ضياعُ اللُّغة ضياعَ المقوِّمات الأخرى» [«الآثار» (134/1)]؛ فمَن اعتاد النَّظرَ إلى دينه ولغته بأعيُن أعدائه، أفرَزَ عقلُه مثلَ هذه الأطروحات المشينة الَّتي تظنُّ ظنَّ الجاهليَّة أنَّ شريعةَ الإسلام تجاوزَها الزَّمنُ وغير موائمَة للحضَارة الحديثة، وفي ذلك مساسٌ فظيعٌ بأعظم ثوابت الأمَّة، والعبث به يعني مسخ الهويَّة بكاملها.

أمَّا المدرسَةُ الَّتي أشرفَ عليها العلماء؛ كابن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ وأمثاله، فعملت على تثبيتَ مقوِّمات الهويَّة من دين ولغة ووطن؛ شعارها: الإسلامُ دينُنَا، والعربيَّةُ لغَتنَا، والجزائر وطننَا؛ وهو ما ساعد على نشوء جيل تحرَّكت فيه الغَيرةُ الدِّينيَّةُ فقام مدافعًا عن ثوابته في وجه العدوِّ المستَعمر وردَّه من حيث أتى خائبًا مدحورًا، وما أظنُّ أنَّه فعَل ذلك إلاَّ لأجل أن تواصِلَ المدرسةُ الَّتي وضع لبناتها ابنُ باديس مسيرتَها آخذةً بعين الاعتبار المتَغيِّرات، دون إخلال بالثَّوابت؛ فالتَّزحزُحُ عن خطِّ هذه المدرسة يعني الحَيْدَةَ عن الجادَّة والبُعد عن الصَّواب، والارتماء في المجهول، ونكون كمَن استبدلَ الَّذي هو أدنى بالَّذي هو خير.

وفي الأخير؛ يجب أن نَعيَ أنَّ التِّلميذَ إنسانٌ يحمل بين جَنبَيْه روحًا، وهو بحاجة ماسَّة إلى تربية دينيَّة مَرجعُها الوَحيُ المنزَّلُ، تُحيي فيه الواعظَ القَلبي، وتُرسِّخ في وعيه أنَّ شرفَه وعزَّه وكرامتَه بقَدر تمسُّكه بدينه؛ حتَّى لا تجرفَه حبائل الشَّيطان المحيطة به، ويواصل حياتَه العلميَّةَ والعمليَّةَ دونَ أن تنهار عندَه الثَّوابت، أو تتميَّع عنده المعايير، وبهذا نكون قد نجحنا في تكوين إنسان صالح قد حاز خيرَي الدُّنيا والآخرة؛ واللهُ الهادي إلى سواء السَّبيل.

¤ ¤ ¤

هلاَّ تدبَّرنا القرآن

سمير زبوجي
الجزائر

إنَّ القرآن كلامُ الله غيرُ مخلوق، المُعجِز المُنزَّلُ على رسول الله ﷺ، بواسطة جبريل عليه السلام، المتعَبَّدُ بتلاوته، المنقول إلينا بالتَّواتُر، المكتوبُ بين دفَّتَي المصحف المُفتَتَح بسورة الحمد، والمختوم بسورة النَّاس؛ ذكر الله فيه علمَ كلِّ شيءٍ من بداية الخلق إلى أحوال يوم الدِّين، وما بعد الموت من بعثٍ وحشرٍ وعرضٍ وحسابٍ ونعيمٍ وعذابٍ، وذكر فيه القصصَ والأحكامَ والشَّرائعَ والأمثالَ والحِكَم، وما تركَ أمرًا إلاَّ وبيَّنَه، ولا شيءَ أنفعُ للقلب من قراءته بتدبُّرٍ، وبذلك يحيى القلب، ويمتلئ بالإيمان، ويشرب منه، فتتأثَّر الجوارح بعده، وتتزيَّن بالصِّفات والأعمال الحسنة الطَّيِّبة، وتبتعد عن كلِّ قبيحٍ مذموم، فيتحقَّق بذلك كلِّه الخشوع، روى الشَّيخان عن النُّعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ألاَ وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألاَ وهيَ القَلْبُ»، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: 16]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: 2]، والقرآن شفاءُ القلوب كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾ [سورة يونس]، وقال أيضًا: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧)﴾ [سورة الحديد]، قال ابنُ كثير في تفسير هذه الآية: «فيه إشارةٌ إلى أنَّه تعالى يُلينُ القلوبَ بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلَّتها، ويفرِّجُ الكروبَ بعد شدَّتها، فكما يُحيي الأرضَ الميِّتة المُجدبَة الهامدة بالغيث الهتَّان[1] الوابل كذلك يهدي القلوب القاسيةَ ببراهين القرآن والدَّلائل»[2] اهـ.

وتتعدَّى قراءةُ القرآن بالتَّدبُّر من دواء القلوب إلى دواء الأبدان، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 8]، قال ابنُ قيِّم الجوزيَّة: «فلو علم النَّاسُ ما في قراءة القرآن بالتَّدبُّر لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها»[3] اهـ؛ وقال في «نونيَّته»:

فتدبَّر القرآنَ إن رُمتَ الهدى
فالعلم تحت تدبُّر القرآنِ

فينبغي على المسلم أن يعتني بقراءة القرآن بتدبُّر، قراءةً تُوصلُه إلى العمل الباطن والظَّاهر، فيسعد بذلك في الدَّارَين، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [سورة النساء]، وقال أيضًا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾ [سورة النحل]، وقال أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤)﴾ [سورة النساء]، وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤)﴾ [سورة التوبة]، وقال أيضًا: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [سورة الرعد]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، قال أيضًا: ﴿أَوَلَمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: 51]، فالقرآن نورٌ وتبيانٌ لكلِّ شيءٍ،

(1) الهتَّان: شديد الصَّبِّ.
(2) «تفسير ابن كثير» (8/ 21).
(3) «مفتاح دار السَّعادة» (1/ 553).

وبقراءته وسماعه يعرف المسلمُ ربَّه، ويعرف أحوالَ الخلق ومآلَهم، فيشحذ إيمانَه، ويذوق حلاوتَه، وينشرح صدرُه، ويفتح له من العلم ما الله به عليمٌ، وبه تطمئنُّ القلوب، وفيه الكفاية التَّامَّةُ لكلِّ شيء، ولا يحصل ذلك إلاَّ لمن قرأه بالتَّدبُّر الَّذي هو المقصودُ من التَّنزيل، كما أخبرنا بذلك - جلَّ جلاله - فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ص]، وما تدبَّر المسلمُ القرآنَ إلاَّ عرف ربَّه بما يليق به من صفات الكمال، ونزَّهه عمَّا لا يليق به - سبحانه وتعالى - من صفات النَّقص، فيميل قلبُه إلى ربِّه، ويرغب في ما عنده، ويخاف ممَّا أعدَّه لمن خالفه وعصاه، فيُقبل على ما أمر به ربُّه إذ فيه كلُّ الخير، ويبتعد عمَّا نهى عنه وزجر إذ فيه كلُّ الشَّرِّ، ويسير حينئذ في طريقه إلى ربِّه على بصيرة من دينه، فيُحقِّق قوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: 108]؛ وكلَّما فهم الإنسانُ معانيَ القرآن تدبَّر أكثر، وإن كان الواجب على كلِّ واحد التَّدبُّرُ قدرَ فَهمه لعموم الآية المتقدِّمة، بل وقد حضَّ الكفَّارَ والمنافقين على التَّدبُّر أيضًا حيث قال - جلَّ جلاله -: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة محمد]، أي إنَّ على قلوبهم قفلاً، لا تنفتح لخير، وكلُّ الخير وأعظمه في تدبُّر كلام الله - عزَّ وجلَّ -، و(أَمْ) في هذا الموضع بمعنى: (بل)، وهي منقطعةٌ عمَّا قبلَها، فالأولى الوقفُ قبلَها والابتداءُ بها.

وكلُّ من لم يتدبَّر القرآنَ فهو مُعرضٌ عنه، يستحقُّ التَّوبيخَ والذَّمَّ، ولن ينتفعَ حقَّ الانتفاع من قراءته، ولا من سماعه، فيفوته بذلك الخير العميم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: 22].

ولْيَعْلَم المسلمُ أنَّ التَّدبُّرَ موقوفٌ على فهم المعنى كما تقدَّم؛ لأنَّ تَدبُّرَ القرآن تأمُّلُ معانيه، وتفكُّرٌ في حكمه، وتبصُّرُ ما فيه من الآيات، ولا يكون ذلك إلاَّ بحضور القلب.

والتَّدبُّرُ من أفضل الأعمال التَّعبُّديَّة، وهو مُيسَّرٌ لكلِّ النَّاس، إلاَّ أنَّه تختلف درجتُه من واحد لآخر حسب درجة العلم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [سورة القمر]، فعلينا ألاَّ نَغفُلَ عن تدبُّر القرآن حتَّى ننتفع بأسراره وحكمه، وبعدها ننفعُ إخوانَنا، فيرتقي بذلك مجتمَعُنا إلى ما ارتقى إليه أوائل الأمَّة من حضارة وازدهار، روى مسلمٌ عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»، وذلك بالعمل بما فيه وما في السُّنَّة النَّبويَّة.

ومن ذاق حلاوةَ التَّدبُّر وأدرَكَ قيمَتَها لم يَنشَغِلْ عنها، وفي ذروة المنتفعين بالقرآن الصَّحابة رضي الله عنهم، فقد نشر الله - عزَّ وجلَّ - الإسلام، وفتح بهم القلوب والبلدان، فصاروا بالقرآن والسُّنَّة سادةً يهابهم كلُّ عدوٍّ، فقهروا جبابرةَ الكفر والإلحاد، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج]، وكذلك من بَعدَهم اتَّبعوهم بإحسان فوصلوا إلى ما وصل إليه أسلافُهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: 100]، إلى أن جاء قومٌ كان حالُهم مع القرآن على غير ما كان عليه الأوائل لأسباب عدَّة رغم كثرة الحفَّاظ والقرَّاء، فتلاشت الأمَّة، وصارت في الحضيض بعد ما كانت في السُّؤدَد، لترك تدبُّرِ الكتاب الَّذي يبعث على العمل، قال رسولُ الله ﷺ: «ويضع به - أي القرآن - آخَرين»، وروى التِّرمذي عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ فشَخَصَ ببصَره إلى السَّماء، ثمَّ قال: «هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ العِلْمُ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى لا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ»، فقال زياد بنُ لَبيد الأنصاري رضي الله عنه: كيف يُختَلَسُ منَّا وقد قرأنا القرآن؟! فوالله لنَقْرَأنَّه ولنُقرِئنَّه نساءَنا وأبناءَنا، فقال ﷺ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيادُ! إِنْ كُنْتُ لأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ! هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟»، قال جُبَيرٌ: «فلَقِيتُ عُبادَةَ بنَ الصَّامت، قلتُ: ألا تَسمَعُ إلى ما يقول أخوك أبو الدَّرداء؟ فأخبَرتُه بالَّذي قال أبو الدَّرداء، قال: صَدَقَ أبو الدَّرداء، إن شئتَ لأحَدِّثَنَّك بأوَّل علم يُرفَع من النَّاس؟ الخشوعُ، يوشك أن تدخل مسجدَ جماعة فلا ترى فيه رجلاً خاشعًا»[4]، وروى أحمد عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ، كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا»، قال: قلنا: يا رسولَ الله! أمِنْ قلَّة بنا يومئذ؟ قال: «أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يُنْتَزَعُ المَهَابَةُ من قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيُجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الوَهْنُ»، قال: قلنا: وما الوَهْن؟ قال: «حُبُّ الحَيَاةِ وكَرَاهِيَةُ المَوْتِ»[5].

نسأل اللهَ العظيمَ أن يَرحَمَنا ويوفِّقَنا لتَدبُّر كلامه والعمل بما فيه، إنَّه على كلِّ شيء قديرٌ، وصلِّ اللَّهمَّ وسلِّم على نبيِّك المختار، وآله الأطهار، وصحابته الأخيار، ومن اقتفى آثارهم ما تعاقب اللَّيلُ والنَّهار.

(4) قال الألباني: «صحيح»، انظر «سنن التِّرمذي».
(5) صحَّحه الألباني، انظر «صحيح الجامع» (8183).

حديث: الهدى والعلم فوائد وحكم

لطفي طاهر
ليسانس في العلوم الإسلامية. الجزائر



وردت أحاديث كثيرة تحثُّ على العلم الشَّرعي وتُثني على أهله وتبيِّن فضله وأثره في حياة النَّاس، من ذلك ما رواه أبو موسى الأشعريّ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال:

«مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ من الهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

أخرجه البخاري في «صحيحه» (79) واللَّفظ له، ومسلم في «صحيحه» (2282)، وأحمد في «مسنده» (19573)، والنَّسائي في «السُّنن الكبرى» (5812)، وابنُ حبَّان في «صحيحه» (4).

ooo

هذا الحديث العظيم، من جوامع كَلِمه ﷺ، وهو مثل شبَّه فيه ما جاء به من الوحي بالغيث وشبَّه قلوب السَّامعين له بالأرض المختلفة، فكما أنَّ الأرض بالنِّسبة للغيث ثلاثة أقسام، فكذلك النَّاس بالنِّسبة للوحي الَّذي جاء به محمَّد ﷺ ثلاثة أقسام.

o قوله: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ به من الهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا»:

في هذه الجملة تشبيهان بليغان: الأوَّل تشبيه معقول بمحسوس، وهو تشبيه ما جاء به النَّبيُّ ﷺ من العلم والهدى بالغيث العام الَّذي يأتي النَّاسَ حال حاجتهم إليه، وتشبيه محسوس بمحسوس، وهو

تشبيه القلوب أو السَّامعين للوحي بالأرض المختلفة[1].

التَّشبيه الأوَّل: شبَّه فيه النَّبيُّ ﷺ ما جاء به من الهدى والعلم بالغيث وهو المطر الكثير لأنَّ كُلاًّ منهما تحصل به الحياة وتنشأ عنه المنافع، فالغيث تحيا به الأرض والعلم تحيا به القلوب.

والتَّشبيه الثَّاني شبَّه فيه القلوب بالأراضي لأنَّ كُلاًّ منهما محلٌّ للتَّقبُّل: فالأرض ينزل عليها المطر، كما أنَّ القلوب يقع عليها العلم، فهذا محلٌّ للماء، وهذا محلٌّ للعلم.

ثمَّ قسَّم الأرض إلى ثلاثة أقسام بحسب قبولها للمطر وكذلك النَّاس ثلاثة أقسام بحسب قبول قلوبهم للوحي، كلُّ قسم من الأرض يقابله قسم من النَّاس.

فأمَّا القسم الأوَّل فهي الأرض الخصبة، قال ﷺ: «فَكَانَ مِنْهَا» وفي باقي الرِّوايات «فكان منها طائفة» أي كان من هذه الأرض قطعة «نقيَّة» أي «طيِّبة» كما في رواية مسلم وابن حبَّان، «قَبِلَت المَاءَ» أي شربت الماء فانتفعت في نفسها «فَأَنْبَتَتْ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ» فنفعت النَّاس والدَّواب.

وأمَّا القسم الثَّاني فهي الأرض الجَدْبَة وهي عكس الخصْبة، قال: «وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَت المَاءَ» أي هي الَّتي لم تشرب الماء فلم تنتفع في نفسها ولكنَّها أمسكته فانتفع به النَّاس والدَّواب، فاشتركت هي والَّتي قبلها في نفع غيرها لذلك قال: «فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا»، وعند مسلم والنّسائي «فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا» وعند أحمد «فَشَرِبُوا وَرَعَوْا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَسْقَوْا».

وأمَّا القسم الثَّالث فهي الأرض

(1) انظر «عمدة القاري» للعيني (2 / 80) بتصرُّف.

السَّبْخة، قال: «وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً» فهي الأرض المستوية الَّتي لم تمسك الماءَ ولم تنبت شيئًا.

وكلُّ قسم من هذه الأقسام يقابله قسم من النَّاس بحسب قبول قلوبهم للوحي الذِّي جاء به محمَّد ﷺ.

فأمَّا الأرض الطَّيبة فيقابلها القسم الأوَّل، وهم الَّذين حفظوا نصوص الكتاب والسُّنَّة وأوتوا الفقه فيهما ثمَّ عملوا بما تعلَّموا فنفعوا أنفسهم كما قال «قَبِلَت المَاءَ» وعلَّموا غيرهم كما قال: «فَأَنْبَتَتْ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ».

وأمَّا الأرض الجَدْبة فيقابلها القسم الثَّاني، وهم الَّذين حفظوا نصوص الكتاب والسُّنَّة لكنَّهم لم يؤتوا من الفقه كالَّذين سبقوا، فكانوا أوعية نقلوا العلم لمن بعدهم كما قال: «وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَت المَاءَ»، وهذان القسمان: الأوَّل والثَّاني، اشتركوا في نفعهم لغيرهم بما حفظوه من العلم فأشار إليهم بقوله: «مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ».

وأمَّا الأرض السَّبْخة فيقابلها القسم الثَّالث وهم الَّذين لم يُلقوا بالاً لما جاء به النَّبيُّ ﷺ ولم يقبلوه ولم يرفعوا به رأسًا وقد أشار إليهم بقوله: «وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[2].

فالنَّاس متفاوتون من حيث استعداد قلوبهم لقبول العلم الَّذي جاء به رسول الله ﷺ، فعن كميل بن زياد أنَّ عليًّا رضي الله عنه قال له: «يا كُمَيْلُ بنَ زياد، القلوبُ أوعيةٌ، فخيرُها أوعاها للخير، احفظ ما أقول

(2) انظر: «فتح الباري» (1 / 175، 177)، و«المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجّاج» للنّووي (15 / 40، 41).

لك: النَّاسُ ثلاثةٌ: فعالمٌ ربَّانيٌّ، ومتعلِّمٌ على سبيل نجاة، وهمَجٌ رعاعٌ أتباعُ كلِّ ناعق، يميلون مع كلِّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق»[3].

فخير النَّاس هم العلماء العاملون المُعلِّمون النَّاس الخير: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [سُورَةُ فُصِّلَتْ]، أولئك ورثة الأنبياء وخلفاء الرُّسل.

وشرُّ النَّاس وأشقى الخلق هم الَّذين أعرضوا عن دين الله واستكبروا عمَّا جاءهم به محمَّد ﷺ ولم يرفعوا به رأسًا، فلا علمًا أخذوا ولا حفظًا أتقنوا ولا خَلْقا نفعوا: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [سُورَةُ الفُرْقَانِ]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: 9].

وبين هاتين المرتبتين مرتبة وسطى وهم الَّذين جمعوا العلم فحفظوا النُّصوص وضبطوها ولكن لم يتفقَّهوا فيها بل نقلوها لغيرهم وهم الَّذين أشار إليهم رسول الله ﷺ في قوله: «نَضَّرَ اللهُ امرأ سَمِعَ منَّا شيئًا، فبَلَّغَه كما سَمِعَه فرُبَّ مُبَلَّغٍ أوعَى من سَامِعٍ»[4].

(3) «حلية الأولياء» (1 / 79).

(4) التِّرمذي (2657) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وانظر: «صحيح الجامع» (6763).



فأمَّا القسم الأوَّل والثَّاني فهم السُّعداء أصحاب القلوب النَّقية الصَّافية المتعطِّشة للعلم إذ «لا يقبل ما أنزل الله من الهدى والدِّين إلاَّ من كان قلبه نقيًّا من الإشراك والشَّك، فالَّتي قبلت العلم والهدى كالأرض المتعطِّشة إليه فهي تنتفع به فتحيا فتنبت، فكذلك هذه القلوب البريئة من الشَّك والشِّرك، المتعطِّشة إلى معالم الهدى والدِّين إذا وعت العلم حَيَت به فعملت وأنبتت بما تحيا به أرماق النَّاس»[5].

وقد جمع النَّبيُّ ﷺ بينهما في المثل لاشتراكهما في الانتفاع بهما، وأمَّا القسم الثَّالث فهم الأشقياء أصحاب القلوب المظلمة الَّتي استوطنها الشَّيطان وقد أفرده ﷺ في المثل لعدم النَّفع به، قال ابن قيِّم الجوزية: «تقسيم النَّاس بالنِّسبة إلى العلم إلى أشقياء وسعداء، فالأشقياء من ليسوا من أهله، والسُّعداء هم أهله وتقسيم السُّعداء إلى سابق مُقرَّب وهم الَّذين علِموا وتفقَّهوا وعلَّموا وإلى أصحاب اليمين المقتصدون وهم الَّذين حملوا العلم ونقلوه ولم يتفقَّهوا فيه»[6].

وجه الشَّبه بين الوحي الَّذي جاء به النَّبيُّ ﷺ والغيث أنَّ الوحي فيه حياة القلوب كما أنَّ الغيث فيه حياة الأرض، قال ابن قيِّم الجوزيَّة: «شبَّه الهدى والعلم الَّذي جاء به بالغيث لما يحصل بكلٍّ واحد منهما من الحياة والمنافع والأغذية والأدوية وسائر مصالح العباد فإنَّها بالعلم والمطر، وشبَّه القلوب بالأراضي الَّتي تقع عليها لأنَّها المحلّ الَّذي يمسك الماء، فينبت سائر أنواع النَّبات النَّافع، كما أنَّ القلوب تعي العلم فيثمر فيها

(5) «شرح ابن بطَّال على صحيح البخاري» (1 / 149).
(6) «مفتاح دار السَّعادة» (1 / 164).

ويزكو، وتظهر بركته وثمرته»[7].

فالعلم يحيي القلوب والجهل يميتها، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: 122]، قال القرطبي: «وقيل: كان ميِّتا بالجهل فأحييناه بالعلم. وأنشد بعض أهل العلم ما يدلُّ على صحَّة هذا التَّأويل لبعض شعراء البصرة:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله
فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرئ لم يحي بالعلم ميِّت
فليس له حتَّى النُّشور نشور»[8]

فالحياة الحقيقية إنَّما تكون بالأخذ بما جاء به رسول الله ﷺ من العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24]، قال السَّعدي: «﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

(7) «مفتاح دار السَّعادة» (1 / 162).
(8) «الجامع لأحكام القرآن» (7 / 87).

وصف ملازم لكلّ ما دعا اللّه ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإنَّ حياة القلب والرُّوح بعبوديَّة اللّه تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدَّوام»[9]، وقال الشَّوكاني: «إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم من علوم الشَّريعة، فإنَّ العلم حياة، كما أنَّ الجهل موت»[10]، وقال ابن قيِّم الجوزية: «فأخبر سبحانه وتعالى أنَّ حياتنا إنَّما هي بما يدعونا إليه الله والرَّسول من العلم والإيمان. فعلم أنَّ موت القلب وهلاكه بفقد ذلك»[11].

وبيَّن هذا الحديث عظَم ما جاء به النَّبيُّ ﷺ من الهدى والعلم وهو القرآن والسُّنَّة، قال ﷺ: «ألا إنِّي أُوتيتُ الكتاب ومِثْله مَعَه»[12]، فأمَّا القرآن فإنَّه يهدي

(9) «تيسير الكريم الرَّحمن» (298).
(10) «فتح القدير» (2 / 430).
(11) «إغاثة اللَّهفان من مصائد الشَّيطان» (23).
(12) جزء من حديث أخرجه أبو داود (4604)، وأحمد (17174) من حديث المقدام بن معدي كرب، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».



لأقوم الطُّرق وأوضح السُّبل كما قال ربُّنا سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: 9]، وأمَّا النَّبيُّ ﷺ فقد جعله الله تعالى القدوة المطلقة والأسوة الحسنة في أقواله وأفعاله وأحواله فقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الأحزاب].

كما بيَّن أنَّ حاجة النَّاس إلى العلم كحاجتهم إلى الغيث بل أعظم، قال ابن قيِّم الجوزية: «فيه دلالة على أنَّ حاجة العباد إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى المطر بل أعظم، وأنَّهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض الَّتي فقدت الغيث». قال الإمام أحمد: «النَّاس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطَّعام والشَّراب، لأنَّ الطَّعام والشَّراب يحتاج إليه في اليوم مرَّة أو مرَّتين والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس»[13].

وفي هذا الحديث ذمُّ الإعراض عمَّا جاء به النَّبيُّ ﷺ من كتاب وسنَّة، هذا الإعراض الَّذي بيَّن ربُّنا عزَّ وجلَّ في كتابه خطورته ومآله في الدُّنيا والآخرة فقال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ [طه: 142]، أي «من خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، أي ضنكا في الدُّنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيِّق حرج لضلاله، وإن تنعَّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإنَّ قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشكٍّ، فلا يزال في ريبة يتردَّد فهذا من ضنك المعيشة»[14].

(13) «مفتاح دار السَّعادة» (1 / 164).

(14) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (4 / 544).

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة طه]، «لا حجَّة له أو عمي عليه كلُّ شيء إلاَّ جهنَّم أو أنَّه يحشر أو يبعث إلى النَّار أعمى البصر والبصيرة أيضًا»[15].

لذلك فإنَّ الله سبحانه وتعالى حذَّرنا من مخالفة أمر رسوله ﷺ فقال: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [سورة النور]، أي: «عن أمر رسول الله ﷺ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنَّته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبل، وما خالفه فهو مَرْدُود على قائله وفاعله، كائنًا من كان، كما ثبت في «الصَّحيحين» وغيرهما، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «من عمل عَمَلاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ»[16]، أي: فليحذر وليخْشَ من خالف شريعة الرَّسول باطنًا أو ظاهرًا ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾، أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: في الدُّنيا، بقتل، أو حَدٍّ، أو حبس، أو نحو ذلك»[17].

وفي هذا الحديث توجيه للدُّعاة والمربِّين والمعلِّمين إلى أسلوب من أحسن أساليب التَّربية والتَّعليم، ألا وهو ضرب الأمثال، فهو أسلوب تربوي استعمله النَّبيُّ ﷺ في مواطن متعدِّدة لما فيه من سرعة في التَّأثير، وبلاغة في الوعظ، وقوَّة في الإقناع، وهو نهجٌ قرآنيٌّ اعتمده القرآن الكريم، وجعله قاعدة أساسية في التَّعبير

(15) المصدر السَّابق (4 / 545) باختصار.

(16) البخاري (2697)، ومسلم (1718) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(17) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (6 / 89-90).

عن المعاني، قال السَّعدي: «القاعدة الثَّانية والعشرون في مقاصد أمثلة القرآن: اعلم أنَّ القرآن الكريم احتوى على أعلى وأكمل وأنفع المواضيع الَّتي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع، فقد احتوى على أحسن طرق التَّعليم، وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه، فمن أنواع تعاليمه العالية: ضرب الأمثال، وهذا النَّوع يذكره الباري سبحانه في الأمور المهمَّة، كالتَّوحيد وحال الموحِّد والشِّرك وحال أهله، والأعمال العامَّة الجليلة. ويقصد بذلك كلِّه توضيح المعاني النَّافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة، ليصير القلب كأنَّه يشاهد معانيها رأي العين. وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه»[18].

وقد بيَّن سبحانه وتعالى الغاية من ضرب الأمثال فقال: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة إبراهيم]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الزمر]، وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الحشر].

اللَّهمَّ وفِّقنا إلى خير العلم وأكمل العمل واجعلنا هداةً مهديِّين، والله أعلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

ooo

(18) «القواعد الحسان لتفسير القرآن» (64).

منّة الشّكور الودود في بيان ما قيل في المقام المحمود



محمد حكيم غرناوطي
المدية

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّد وَلد آدم أجمعين، خصَّه ربُّه بفضائلَ سَمَا بها عن غَيره من الرُّسُل و النَّبيِّين، من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ٧٩﴾ [سُورَةُ الإِسْرَاءِ].

وللعلماء في هذه المسألة ـ أعني معنى المقام المحمود ـ خمسةُ أقوال[1].

○ **القول الأوَّل:** المقامُ المحمود هو الشَّفاعةُ العظمى، وذلك أنَّ يومَ القيامة يجتمع النَّاسُ جميعُهم من لَدُنْ آدم عليه السلام حتَّى آخرِ إنسانٍ، في يوم شديد حرُّه، مديد هولُه، يجتمعون في صعيد واحد للفصل بينهم، فيطول بهم المقام فيستشفعون بأبي البشر آدمَ ثمَّ نوح ثمَّ إبراهيمَ ثمَّ موسى ثمَّ عيسى عليه السلام ليريحَهم الله من هول الموقف وكَربه، فما يُقدم عليها إلاَّ نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ فيشفع عند ربِّه فيُشفِّعُه، ويُقيمُه مقامًا يحمده ويغبطُهُ فيه الأوَّلون والآخرون، وتكون له المنَّةُ على جميع الخلق، كما جاء في أحاديثَ وآثار عن الصَّحابة والتَّابعين رضي الله عنهم، وهو قولُ أكثرِ أهل العلم[2].

الثَّاني: المقامُ المحمودُ هو إعطاءُ النَّبيِّ ﷺ يومَ القيامة لواءَ الحَمد[3]

وهذا القولُ كما قال القرطبي في «التَّذكرة» لا تنافي بينه وبين الأوَّل؛ فإنَّه يكون بيده لواءُ الحمد ويَشفَعُ، ودليلُ أصحابِ هذا القولِ ما جاء في حديث أنَّه ﷺ قال: «...وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ...»[4].

الثَّالث: المقامُ المحمودُ هو إقعَادُ النَّبيِّ ﷺ على العَرش، وسنُؤخِّرُ الكلامَ على هذا القولِ لطوله.

الرَّابع: المقامُ المحمودُ هو إخراجُه ﷺ طائفةً من النَّار، ودليلُ أصحاب هذا القولِ قولُ جابر رضي الله عنه: «فإنَّه مقامُ مُحمَّد ﷺ المحمودُ الَّذي يُخرِجُ الله به مَنْ يُخرجُ...»[5].

وقولُ أنس رضي الله عنه بعدما روى حديثَ الشَّفاعة بطوله ثمَّ ذكَرَ شفاعَتَه ﷺ في إخراجه من النَّار أناسًا حتَّى ما يبقى في النَّار إلاَّ مَنْ حبسه القرآنُ ثمَّ قال: «وهذا المقامُ المحمودُ الَّذي وُعِدَهُ نبيُّكم»[6].

الخامس: المقامُ المحمودُ هو شفاعتُه ﷺ، يقول الحافظُ ابنُ حجر[7]: «ويظهر أنَّ المقَامَ المحمودَ هو مجموع ما يحصل له في تلك الحالة»، وفي موضع آخر قال: «...ويمكن ردُّ الأقوالِ كلِّها إلى الشَّفاعة العامَّة؛ فإنَّ إعطاءَه لواءَ الحمدِ وثناءَه على ربِّه وكلامَه بين يَدَيْه وجلوسَه على كرسيِّه وقيامَه أقرَبَ من جبريل، كلُّ ذلك صفاتٌ للمقام المحمودِ الَّذي يشفعُ فيه ليُقْضَى بين الخلق...».

والَّذي ظهر لي أنَّ الشَّيخَ ابنَ عثيمين رحمه الله يقول بأنَّ المقامَ المحمودَ هو شفاعتُه ﷺ، ففي مواضع من شرحه لباب الشَّفاعة من «كتاب التَّوحيد»[8]، ذكر الشَّفاعاتِ الخاصَّةَ بالنَّبيِّ ﷺ

(1) حكاها القرطبي كما في «تفسيره» (13 / 147)، و«التَّذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» (ص604 ـ 606).

(2) كما ذكر ابنُ جرير الطَّبري في «تفسيره» (15 / 43).

(3) اللِّواء هو الرَّاية، ولواءُ الحمد بيده ﷺ؛ لأنَّه أجلُّ محمود من بَني آدم، وأجلُّ حامد، فهو يحمد الله تعالى بمَحامدَ يُلهِمُه الله إيَّاها يومَ القيامة، كما قال القاضي عياض في «مشارق الأنوار» (1 / 200).

(4) رواه أحمد والتِّرمذي وغيرُهما، وصحَّحه الشَّيخ الألباني في «الصَّحيحة» (1571).

(5) كما في قصَّة يزيد الفقير الطَّويلة لمَّا شَغَفَه رأيُ الخوارج في «صحيح مسلم» (191).

(6) «صحيح البخاري» (7440).

(7) «الفتح» (2 / 95).

(8) «القول المفيد على كتاب التَّوحيد».

(ص331) فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «النَّوع الأوَّل: الشَّفاعةُ العُظمَى، وهي من المقام المحمود الَّذي وَعدَه الله»، وقال (ص345): «فإنَّ الله وعَدَه أن يَبعَثَه مقامًا محمودًا، ومن المقام المحمود: أنَّ الله يَقبَلُ شفاعتَه بعد أن يتراجع الأنبياءُ أُولُو العَزم عنها».

فالشَّفاعةُ لأهل الموقف هي أعلى مَوقف يتجلَّى فيها مقامُ النَّبيِّ ﷺ عند ربِّه يَحمَدُه عليه الأوَّلون والآخرون، ثمَّ ما بعدها تكون دونها فتفسير المقام المحمود بها كما جاءت الرِّواياتُ من باب التَّفسير بالأعلى كـ«الحَجُّ عَرَفَةُ» لا حصره فيها، والعلم عند الله تعالى.

ooo



وأمَّا ما قيل في تفسير المقام المحمود ـ وهو إقعادُ النَّبيِّ ﷺ على العرش ـ فقد جاء في ذلك أحاديثُ؛ الأوَّل:

○ عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بَيْنَا أنا عند رسول الله ﷺ أَقرَأُ عليه حتَّى بَلَغْتُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ قال: «يُجْلِسُنِي عَلَى العَرْشِ»، قال الشَّيخُ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «باطل»[9].

○ والثَّاني: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قال رسولُ الله ﷺ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ قال: «يُجْلِسُنِي مَعَهُ على السَّرير».

قال الشَّيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «باطل»[10]

وجاء عن عبد الله بن سلام وعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا موقوفًا عند أبي بكر الخلاَّل[11].

والَّذي عُرِفَ بالقول به من التَّابعين هو مُجاهدُ بنُ جَبْر رَحِمَهُ اللَّهُ ـ مع أنَّه صحَّ عنه تفسيرُ المقام المحمود بالشَّفاعة العظمى فيما أخرجه ابنُ جرير الطَّبري في «تفسيره» ـ.

وتفسيرُه بالإقعاد أخرجَه ابنُ جرير وغيرُه من طُرُق إلى محمَّد بن فُضَيل وغيره عن ليث بن أبي سُلَيم عن مُجاهد، في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾، قال: «يُجلسه معه على عَرشه»، والأثرُ ضعيفٌ فيه اللَّيث بن أبي سُلَيم، وجاء من طُرُق أُخرى لم تَسلَمْ من ضعف.

وأخذ بتفسيره طوائفُ من علماء السُّنَّة؛ منهم الإمامُ أحمد بنُ حنبل، وإسحاق بنُ إبراهيم بن راهويه، وأبو داود السِّجستاني صاحبُ «السُّنن»، وإبراهيم ابن إسحاق الحربي (ت285هـ)، ذكرهم الخلاَّل وابنُ أبي عاصم أبو بكر أحمد بن عمرو (ت287هـ)[12]، والبربهاري أبو مُحمَّد الحسن بنُ علي بن خَلف (ت329هـ)[13]، والآجُرِّي أبو بكر محمَّد بن الحُسين البغدادي (ت360هـ)[14]، والطَّبراني أبو القاسم سليمان بنُ أحمد الشَّامي (ت360هـ)، والدَّارقُطني أبو الحسن علي بن عُمَر (ت385هـ)، وابنُ بطَّة أبو عبد الله عبيد الله العُكْبَري الحنبلي(ت387هـ)[15]،وغيرُهم كثيرٌ جدًّا.

وأمَّا الطَّبري فقال في «تفسيره»: «وأَوْلَى القَوْلَيْن في ذلك بالصَّواب ما صحَّ به الخبرُ عن رسول الله ﷺ... وهذا وإن كان هو الصَّحيحُ من القول في تأويل قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ لما ذَكَرْنا من الرِّواية عن رسول الله ﷺ وأصحابه والتَّابعين؛ فإنَّ ما قاله مُجاهدٌ من أنَّ الله يُقعدُ مُحمَّدًا ﷺ على عَرشه، قولٌ غَيرُ مَدفُوع صحَّتُه، لا من جهة خَبر ولا نَظر، وذلك لأنَّه لا خبرَ عن رسول الله ﷺ ولا عن أَحد من أصحابه ولا عن التَّابعين بإحالة ذلك...».

وأمَّا شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فقال[16]: «وقد قال طوائفُ من السَّلف والخَلف أنَّه يُقعدُه معه على العرش وأنكر ذلك آخرون»، حكى هذا القولَ غيرَ مُنكر ذلك في مواضعَ عدَّة من كُتبه[17]، ومثلُه

(9) «سلسلة الأحاديث الضَّعيفة» (865).
(10) «سلسلة الأحاديث الضَّعيفة» (6465).
(11) كما في «السُّنَّة»: باب ذكر المقام المحمود (1 / 209 وما بعدها) وكلُّها ضعيفةٌ.

(12) في «السُّنَّة» (ص527).
(13) في كتاب «السُّنَّة».
(14) في «الشَّريعة».
(15) في «الإبانة عن شريعة الفرقة النَّاجية ومجانبة الفرَق المذمومة».
(16) «الاستغاثة في الرَّدِّ على البكري» (2 / 539).
(17) «درء تعارض العقل والنَّقل» (5 / 237)، و في «مجموع الفتاوى» (4 / 374).

ابنُ القيِّم[18] رحم اللهُ الجميعَ.

وكذا الذَّهبي[19] قال: «فممَّنْ قال إنَّ خَبرَ مُجاهد يُسلَّمُ له ولا يعارض عَبَّاسُ بنُ مُحَمَّد الدُّوري الحافظ ويحيى ابنُ أبي طَالب المُحدِّث... [سمَّى طائفة] وخلقٌ سواهم من علماء السُّنَّة ممَّنْ أعرفُهم وممَّنْ لا أعرفُهم، ولكن ثبت في الصِّحاح أنَّ المقامَ المحمودَ هو الشَّفاعةُ العامَّةُ الخاصَّةُ بنبيِّنا ﷺ».

أمَّا ابنُ عبد البرِّ (ت463هـ) فقد قال[20]: «ومجاهد وإن كان أحدَ المُقدَّمينَ في العلم بتأويل القرآن فإنَّ له قولَيْن في تأويل آيتين هما مهجوران عند العلماء مرغوبٌ عنهما، أحدُهما قولُه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ قال: «حسنة»، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قال: «تنظر الثَّواب».

والآخَرُ قولُه في قول الله: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ قال: «يوسعُ له على العرش فيُجْلسُه معه».

وهذا قولٌ مخالفٌ للجماعة من الصَّحابة ومن بَعدَهم فالَّذي عليه العلماءُ في تأويل هذه الآية أنَّ المقامَ المحمودَ الشَّفاعةُ، والكلامُ في هذه المسألة من جهة النَّظر يطول وله موضع غير كتابنا هذا وبالله التَّوفيق».

والَّذي عُرِفَ عنه إنكارُ هذا القول القرطبي كما في «تفسيره» قال: «وعضَّدَ الطَّبري جوازَ ذلك بشطَط من القول، وهو لا يخرجُ إلَّا على تلطُّف في المعنى، وفيه بُعْدٌ، ولا يُنكرُ مع ذلك أن يُروَى، والعلمُ يتأوَّله».

والشيخ الألباني اشتدَّ نكيرُه على مَنْ قال بهذا القول[21].

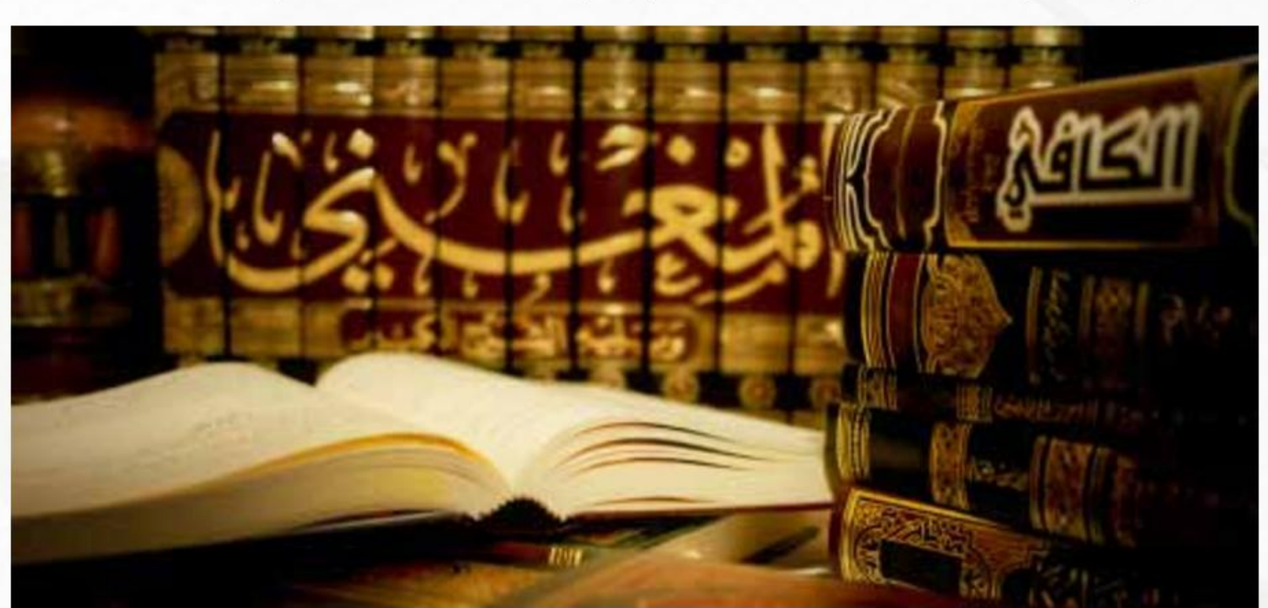
أمَّا الشَّيخُ محمَّد بنُ إبراهيم آل الشَّيخ فإنَّه يرى أنَّه لا مُنافاةَ بين القولَيْن، فيمكن الجمعُ بينهما بأنَّ كلَيْهما من ذلك والإقعادُ على العرش أبلَغُ[22].

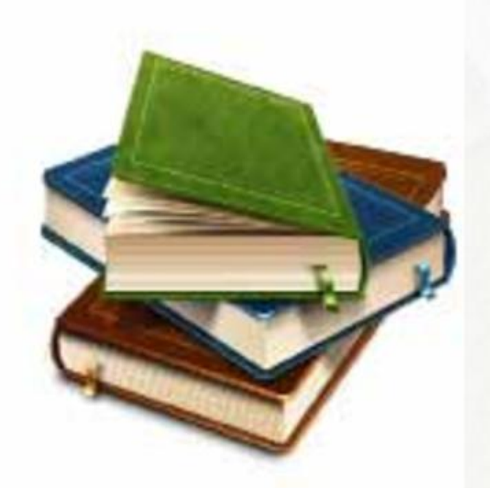
وأمَّا اللَّجنة الدَّائمة برئاسة الشَّيخ ابن باز أفتَتْ أنَّه: «لم يَثبُتْ عن النَّبيِّ ﷺ في هذا الأمر شيءٌ يجب اعتقادُه فيما نَعلَم، وبضعف أثر مجاهد»[23].

ومن قال بقول مجاهد يمكن أن يُخرَّجَ على ما قال الشَّيخ عبد المحسن العبَّاد[24]: «...لم يَثبُتْ رفعُه إلى رسول الله ﷺ... والأصلُ في مثل ذلك أن يُعوَّلَ على ما جاء به الوَحيُ، وليس المعنى فيه من قَبيل التَّشبيه والتَّجسيم، كما زعمَ المالكي، بل هو نظيرُ الكتاب الَّذي كتَبَه الله، وهو عنده فوق العرش، ففي «صحيح البخاري» (7553) و«صحيح مسلم» (2751) عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ: غَلَبَتْ ـ أو قال ـ سَبَقَتْ رَحْمَتِي غضَبِي، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ»، فلو صحَّ ما ذُكر عن النَّبيِّ ﷺ لكان النَّبيُّ ﷺ عنده فوق العرش، كما كان هذا الكتاب عنده فوق العرش».

ooo

(18) «بدائع الفوائد» (4 / 1379).
(19) «العلوِّ للعليِّ الغفَّار» (ص194).
(20) «التَّمهيد» (7 / 157ـ158).
(21) «مختصر العلو» (ص15ـ21)، و«سلسلة الأحاديث الضَّعيفة» في مَوضعَيْن: الأول (865)، وآخر (6465).
(22) «فتَاوى ورَسَائل» له (2 / 136).
(23) الفتوى رقم (19346).
(24) «الانتصار لأهل السُّنَّة والحديث في رد أباطيل حسن المالكي» من «كتب ورسائل الشَّيخ عبد المحسن» (7 / 285ـ286).





فتح الربِّ الودود على إيضاح مسألة حلق شعر المولود

محمد طالبي
دكتوراه في تخصُّص علم القراءات. وادي سوف

لا شك أنَّ نعمة الله على عباده بالأولاد نعمة عظيمة تستوجب شكرًا يقدِّمه العبد إلى ربِّه، ومن الشُّكر القيام بحقِّ الله فيهم وحُسن تربيتهم على الدِّين والأخلاق كما علَّمنا رسولُ الله ﷺ، وممَّا علَّمنا ﷺ ما نقومُ به أيَّام ولادتهم من اختيار اسمٍ حسنٍ وذبحِ عقيقةٍ وختانٍ وحلقِ شعرٍ، ولما كانت مسألة حلق شعر الأنثى مختلفا فيها بين العلماء شمرت عن ساعد الجد للتحقيق فيها فكان بين يديك هذا البحث.

وضمَّنتُه المباحث الآتية:

المبحث الأوَّل: الأحاديث الصَّحيحة في حلق شعر المولود.

المبحث الثَّاني: أقوال العلماء في حلق شعر المولود.

المبحث الثَّالث: مناقشة أقوال العلماء.

المبحث الرَّابع: التَّرجيح.

وبالله وحده أستعين ومنه أستمدُّ العون والتَّوفيق والرَّشاد

فأقول:

المبحث الأوَّل: الأحاديث الصَّحيحة في حلق شعر المولود

الحديث الأوَّل: روى أهل السُّنن عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: «كُلُّ غُلَامٍ رَهِينَةٌ بِعَقِيقَتِهِ تُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ وَيُحْلَقُ وَيُسَمَّى»(1).

ooo

الحديث الثَّاني: وروى الإمام مَالكٌ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمنِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ؛ أَنَّهُ قَالَ: «وَزَنَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَعَرَ حَسَنٍ وَحُسَيْنٍ، فَتَصَدَّقَتْ بِزِنَتِهِ فِضَّةً»(2).

ooo

الحديث الثَّالث: وروى الإمام أحمد عَنْ أَبِي رَافِعٍ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ رضي الله عنه لَمَّا وُلِدَ أَرَادَتْ أُمُّهُ فَاطِمَةُ رضي الله عنها أَنْ تَعُقَّ عَنْهُ بِكَبْشَيْنِ، فَقَالَ

(1) أخرجه أبو داود (2838)، والتِّرمذي (1522)، وابن ماجة (3165)، والنَّسائي في «الكبرى» (4532) عن سمرة بن جندب رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (4 / 385).

(2) «الموطأ» (1840) وهو مرسل.

ﷺ: «لاَ تَعُقِّي عَنْهُ، وَلَكِنْ احْلِقِي شَعْرَ رَأْسِهِ ثُمَّ تَصَدَّقِي بِوَزْنِهِ مِنَ الْوَرِقِ فِي سَبِيلِ اللهِ»، ثُمَّ وُلِدَ حُسَيْنٌ بَعْدَ ذَلِكَ فَصَنَعَتْ مِثْلَ ذَلِكَ[3].

ooo

الحديث الرَّابع: وروى ابن حبان عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانُوا فِي الجَاهِلِيَّةِ إِذَا عَقُّوا عَنِ الصَّبِيِّ خَضَبُوا قُطْنَةً بِدَمِ العقيقة فإذا حلقوا رأس الصَّبِيِّ وَضَعُوهَا عَلَى رَأْسِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اجعلوا مكان الدَّم خَلُوقًا»[4].

ooo

المبحث الثَّاني: أقوال العلماء في حلق شعر المولود

اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين:

القول الأوَّل: يُحلَق كلُّ مولودٍ ولا فرق بين الذَّكر والأنثى وإليه ذهب المَالِكِيَّةُ[5] وَالشَّافِعِيَّةُ[6] واستدلُّوا:

بالأثر: وهو عموم الأدلَّة السَّابقة، وكذلك ما جاء «أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَزَنَتْ شَعْرَ الحَسَنِ وَالحُسَيْنِ وَزَيْنَبَ وَأُمِّ كُلْثُوم وَتَصَدَّقَتْ بِزِنَة ذَلِكَ فِضَّةً»[7]، وفي «صحيح البخاري» «وَأَمِيطُوا عَنْهُ الأَذَى»[8]، قال ابن سيرين رحمه الله: «إِنْ لَمْ يَكُنِ الأَذَى حَلْقَ الرَّأْسِ فَلاَ أَدْرِي مَا هُوَ»[9]، أي أنَّ الحلق هو إزالة الأذى عن المولود الذَّكر والأنثى على السَّواء وليس من المناسب أن يبقى هذا الأذى عليها طول حياتها.

وبالنَّظر: قالوا هَذَا حَلْقٌ فيه مَصْلَحَةٌ مِنْ حَيْثُ التَّصَدُّقُ، وَمِنْ حَيْثُ حُسْنُ الشَّعْرِ بَعْدَهُ، وَعِلَّةُ الكَرَاهَةِ مِنْ تَشويه الخَلق غَيْرُ مَوْجُودَة هُنَا، وقالوا تُقاس الأنثى على الذَّكر[10].

القول الثَّاني: يُحلق شعر المولود الذَّكر دون الأنثى وإليه ذهب الحنابلة[11] واستدلُّوا:

بالأثر: وهو ما رواه أهل السُّنن عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «كُلُّ غُلاَم رَهِينَةٌ بِعَقِيقَتِهِ تُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ وَيُحْلَقُ وَيُسَمَّى»[12]، قالوا: هو خاصٌّ بالذَّكر دون الأنثى، وكذلك ما جاء: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ لفَاطِمَةَ رضي الله عنها لَمَّا وَلَدَتْ الحَسَنَ رضي الله عنه: «احْلِقِي رَأْسَهُ وَتَصَدَّقِي بِزِنَة شَعْرِهِ فِضَّةً»[13].

وبالنَّظر: قالوا قياسًا على الحجِّ فالنِّساء يحرم عليهنَّ الحلق؛ لأنَّ فيه مُثلة والشَّعر زينة للمرأة بالاتِّفاق[14]؛ ولأنَّ في حلق شعورهنَّ تشبُّهًا بالرِّجال، وهو حرام[15].

ooo

المبحث الثَّالث: مناقشة أقوال العلماء

بعد عرضنا لأدلَّة الفريقين الأثريَّة والنَّظريَّة يحسُن بنا الآن التَّمعُّن في صحَّة الاستدلال بها وتوجيهها توجيهًا صحيحًا فأقول:

■ **مناقشة أدلَّة أصحاب القول الأوَّل:**

استدلالهم بعموم الأدلَّة فيه نظرٌ؛ لأنَّه لم يصحَّ حديثٌ في حلق شعر المولود الأنثى، وإذا كان الأمر كذلك بقينا على الأصل، وهو النَّهي عن حلق المرأة رأسها، سواء في العقيقة أو في غيرها قال ابن قدامة: «ولا تختلف الرِّواية في كراهة حلق المرأة رأسها من غير ضرورة، قال أبو موسى رضي الله عنه: «برئ رسول الله ﷺ من الصَّالقة والحالقة»[16]»[17] اهـ.

وأمَّا حديث فاطمة في حلق شعر بنتيها فضعيف بزيادة «زَيْنَب وَأُمّ كُلْثُوم»،

(3) «المسند» (27183)، (27196). قال الألباني في «السِّلسلة الضَّعيفة» (11 / 173): «وإسناده حسن».
(4) «صحيح ابن حبَّان» (5308)، وصحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (463) و(2452).
(5) ينظر: «جامع الأمَّهات» (ص231)، و«الشَّامل في فقه الإمام مالك» (1 / 269 ـ 270)، و«شرح مختصر خليل» (3 / 48)، و«الفواكه الدَّواني» (1 / 393)، و«الثَّمر الدَّاني» (ص409)، و«حاشية العدوي على كفاية الطَّالب الرَّبَّاني» (1 / 594).
(6) ينظر: «المجموع» (8 / 432)، و«الحاوي» (15 / 130)، و«أسنى المطالب» (1 / 549)، و«الغرر البهيَّة» (5 / 172)، و«مغني المحتاج» (6 / 142)، و«العزيز شرح الوجيز» (12 / 119).
(7) أخرجه مالك (1442) ومن طريقه أبو داود في مراسيله (380)، والبيهقي في «معرفة السُّنن» (19142)، والبغوي في «شرح السُّنَّة» (2819)، مرسلاً، وذكر زينب وأم كلثوم لا شاهد لها، ينظر: «السِّلسلة الضَّعيفة»، الألباني (11 / 173).
(8) أخرجه البخاري (5471).
(9) ينظر: «فتح الباري» ابن حجر (9 / 593).
(10) ينظر: «الموسوعة الفقهيَّة الكويتيَّة» (18 / 97)، و«أسنى المطالب» (1 / 549).
(11) ينظر: «المغني» (9 / 461)، و«الشَّرح الكبير» (3 / 587)، و«كشاف القناع» (3 / 29)، و«المبدع في شرح المقنع» (3 / 273)، و«الإنصاف» (4 / 111)، و«الرَّوض المربع» (ص293)، «شرح منتهى الإرادات» (1 / 614)، و«نَيل المَآرِب بشَرح دَلِيل الطَّالب» (1 / 317).
(12) أخرجه أبو داود (2838)، والترمذي (1522)، وابن ماجة (3165)، والنَّسائي في «الكبرى» (4532) عن سمرة بن جندب رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (4 / 385).
(13) أخرجه التِّرمذي (1519)، وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن التِّرمذي»، وانظر: «الإرواء» (4 / 384).
(14) ويؤيِّد هذا قول رسول الله ﷺ: «ليس على النِّساء حلق»، أخرجه أبو داود (1984)، وصحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (605).
(15) ويؤيِّد هذا لعن رسول الله ﷺ: «المُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بالرِّجَال»، أخرجه البخاري (5885).
(16) متَّفق عليه، البخاري (1296)، ومسلم (167).
(17) «المغني» (1 / 68).

لذا قال الحافظ: «وَأَمَّا زِنَةُ شَعْرِ أُمِّ كُلْثُومَ وَزَيْنَبَ، فَلَمْ أَرَهُ»[18] اهـ.

وكذلك قول ابن سيرين رَحِمَهُ اللهُ فإنَّه مردودٌ بقول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «ولكن لا يتعيَّن ذلك في حلق الرَّأس فقد وقع في حديث ابن عبَّاس عند الطَّبراني: «ويُماط عنه الأذى ويُحلق رأسه» فعَطَفَهُ عليه فالأَوْلى حملُ الأذى على ما هو أعمُّ من حلق الرَّأس، ويؤيِّد ذلك أنَّ في بعض طُرق حديث عمرو بن شعيب «ويماط عنه أقذاره» رواه أبو الشَّيخ»[19] اهـ.

وأمَّا القياس على الذَّكر فمحلُّ نَظَر؛ لأنَّ الشَّعر زينة للمرأة أصالة بخلاف الرَّجل، أضف إلى هذا أنَّ علَّة حلق شعر الغُلام غير منصوص عليها وليست هي إماطة الأذى كما سبق فلا يصحُّ القياس حينئذٍ.

ooo

■ **مناقشة أدلَّة أصحاب القول الثَّاني:**

معلوم أنَّ الخطاب الشَّرعي عامٌّ وإن كان موجَّهًا للذُّكور فللتَّغليب فقط لقوله ﷺ: «النِّساء شقائق الرِّجال»[20] فما ثبت في حقِّ الرِّجال ثبت في حقِّ النِّساء، ولا تخرج النِّساء من اللَّفظ العامِّ إلاَّ بدليل[21].

وأمَّا القياس على الحجِّ فهو غير صحيح، لأنَّ أحاديث الحجِّ كلَّها واردةٌ في المرأة الكبيرة، فكيف تُقاس عليها المولودة الجديدة.

وأمَّا ادِّعاء التَّشبُّه والمُثلة فغير مسلَّم؛ لأنَّ حلق شعر البنت المولودة سببٌ لتقوية شعرها وبذلك يحصل المرجوُّ من التَّزيُّن والتَّجمُّل به.

ooo

المبحث الرابع: التَّرجيح

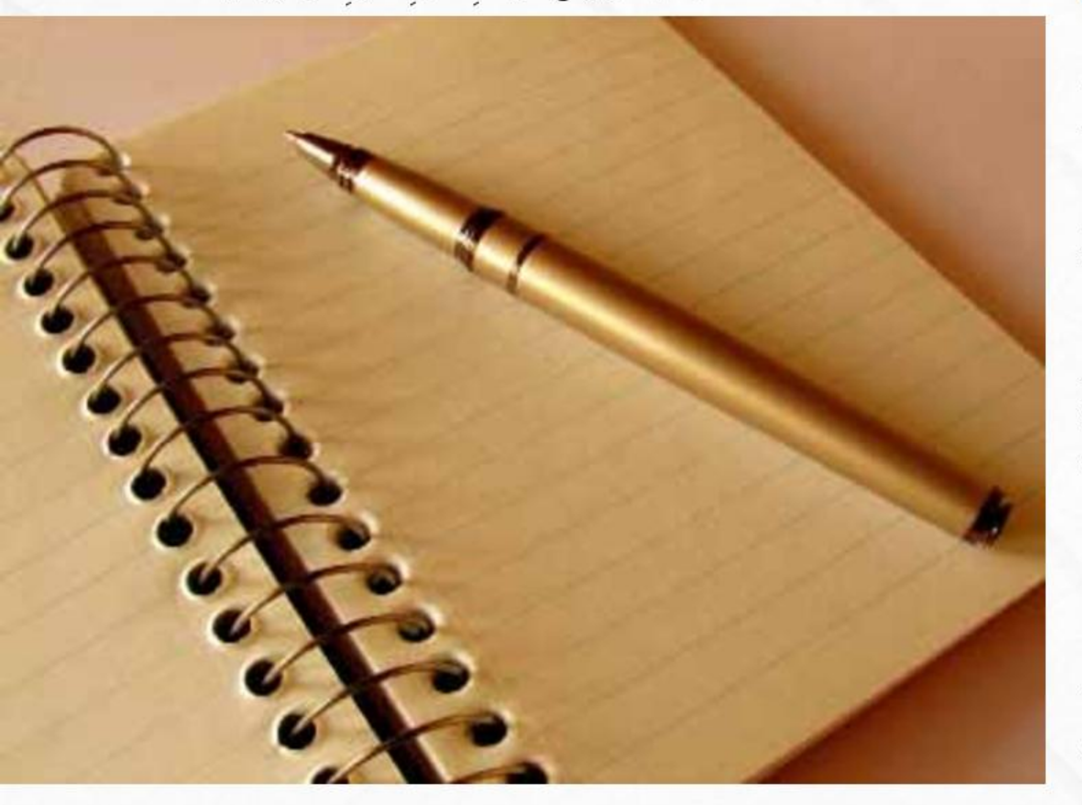
بعد النَّظر في أدلَّة الفريقين وما نُوقشت به تلك الأدلَّة أرى -والله أعلم- أنَّ ظاهر الأدلَّة يتماشى مع القول الثَّاني وهو الذي يترجَّح لي لما يأتي:

أوَّلاً: لفظ (غُلام) لا يُطلق في نصوص الكتاب والسُّنَّة إلاَّ على الذَّكر، كما أنَّ لفظ (جارِيَة) يُطلق على الأُنثى، قلتُ هذا بعد استقراء القرآن العظيم كاملاً وأكثر أحاديث الكُتب السِّتَّة فقط، ولاحظتُ أيضًا التَّفريق بينهما عند الإمام النَّسائي في «سننه الكبرى». تأمَّل قوله (باب كم يُعقُّ عن الغُلام) ثمَّ أورد حديث أمِّ كُرز رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، ثمَّ قال: «العقيقة عن الجارية» ثمَّ أورد حديث أمِّ كُرز رَضِيَ اللهُ عَنْهَا من طريق آخر، ثمَّ قال أيضًا: «كم يُعقُّ عن الجارية» وكرَّر حديث أمِّ كُرز رَضِيَ اللهُ عَنْهَا من طريق ثالث، فلو لا التَّفريق بينهما لاكتفى بالباب الأوَّل؛ لأنَّ لفظ الغُلام يشمل الذَّكر والأنثى والنِّساء شقائق الرِّجال كما في الحديث.

إذا تقرَّر هذا أعني التَّفريق بين لفظ (غُلام) ولفظ (جارِيَة) فتأمَّل الأحاديث الواردة في الحلق كلَّها تجد المقصود بها.

ooo

ثانيًا: لفظ (غُلام) عند أهل اللّغة أيضًا يُطلق على الذَّكر فقط فالعربُ تَقول للمولُود حينَ يولَدُ ذكرًا غُلاَم، وقيل يُطلق عليه من حين أن يُولد إلَى أن يَشبَّ، ويُجمع على أَغْلِمَة وغِلْمَة وغِلْمان، وَيُقال



---

(18) «التَّلخيص الحبير» (4 / 367).

(19) «فتح الباري» ابن حجر (9 / 593).

(20) أخرجه أبو داود (236)، والتِّرمذي (113)، وصحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (2863).

(21) «أربعون سؤالاً في أحكام المولود»، محمَّد علي فركوس (ص40).



للأُنْثَى غُلامة[22].

ومع هذا يقولُون: لو قال رجلٌ: أُوصي بمالي للجواري من بني فلان، لم يُعْطَ الغلمان منه شيئًا، كذلك لو قال: أُوصي بمالي للغلمان من بني فلان، لم يُعْطَ الجواري منه شيئًا، وإنْ كانت الجارية يُقال لها: غُلامة؛ لأنَّ قولهم للجارية: غُلامة، شاذٌ ولا يُحمل الكلام على الشُّذوذ[23].

وأحاديث الحلق خطابُ رسول الله ﷺ فيها لأولياء الغُلام دون الأنثى فلو حلَق الأولياءُ شعرها لخالفوا لسان العرب الَّذي عليه نُصوص الكتاب والسُّنَّة.

ooo

ثالثًا: كانوا في الجاهليَّة إذا حلقوا رأس الغُلام لطَّخُوا رأسه بالدَّم ولا يفعلون هذا بالأنثى فخالفهم رسولُ الله ﷺ في تلطيخه بالزَّعفران كما سبق في

(22) «المحكم والمحيط الأعظم» (5 / 538)، و«جمهرة اللُّغة» (2 / 960)، و«تهذيب اللُّغة» (8 / 136)، و«لسان العرب» (12 / 440)، و«تاج العروس» (33 / 186).

(23) «الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس» (2 / 304)، و«تهذيب اللُّغة» (15 / 149).

حديث عائشة رضي الله عنها ويوضِّحه قول بريدة رضي الله عنه: «كُنَّا فِي الجَاهِلِيَّةِ إِذَا وُلِدَ لأَحَدِنَا غُلَامٌ ذَبَحَ شَاةً وَلَطَخَ رَأْسَهُ بِدَمِهَا فَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بِالإِسْلَامِ كُنَّا نَذْبَحُ شَاةً وَنَحْلِقُ رَأْسَهُ وَنُلَطِّخُهُ بِزَعْفَرَانٍ»[24].

فإن قيل: لَعَلَّ التَّعْبِيرَ بالغُلَامِ ورد من باب تَعَلُّق الوَالِدَيْن به أَكْثَرَ من الأُنْثَى فَقُصِدَ حَثُّهُمْ عَلَى فِعْلِ العَقِيقَةِ وَإِلاَّ فَالأُنْثَى كَذَلِكَ؟

الجواب: سبق أنَّ العقيقة والَّتي هي الذَّبح مشروعة للغُلام والأنثى وأمَّا الحلق للأنثى فيحتاج إلى دليل خاصٍّ.

ooo

رابعًا: أنَّ الحسن البصري وقتادة وغيرهما - رحمهم الله جميعًا - ذهبوا إلى أنَّ العقيقة تختصُّ بالذَّكر دون الأنثى[25] أخذًا بظاهر لفظ (غُلام)، ومأخذهم قويٌّ لغةً وشرعًا كما سبق، ولولا حديث أمِّ كُرْز رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «عَنِ الغُلَامِ شَاتَانِ، وَعَنِ الجَارِيَةِ شَاةٌ لاَ يَضُرُّكُمْ ذُكْرَانًا كُنَّ أَمْ إِنَاثًا»[26]، لترجَّح الأخذُ بقولهم.

ooo

خامسًا: أنَّ العقيقة هي الذَّبح، والذَّكر والأنثى سواءٌ فيه إلاَّ في العدد على خلاف ليس هذا محلَّ بسطه، أمَّا التَّسمية والحلق والختان وغيرها فهي توابع لها ويدلُّ على هذا ثلاثة أحاديث:

الأوَّل: «العقيقة حقٌّ عن الغُلام شاتان

(24) أخرجه أبو داود (2843)، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (4 / 388 - 389).

(25) ينظر: «شرح السُّنَّة» (11 / 264)، و«المصنَّف» ابن أبي شيبة (8 / 57).

(26) أخرجه التِّرمذي (1516)، والنَّسائي (4217)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (4106).

متكافئتان وعن الجارية شاة»[27].

الثَّاني: «العقيقة تُذبح لسبع أو لأربع عشرة أو لإحدى وعشرين»[28].

الثَّالث: «عن الغلام عقيقتان وعن الجارية عقيقة»[29].

فإنْ قال قائل: أليست العقيقة هي الشَّعر الَّذي يُولد به الطِّفل؛ لأنَّه يَشقُّ الجلد؟

الجواب: بلى هذا المعنى صحيح في اللُّغة وقد قال به أبو عبيد والأصمعي وغيرهما لكن أَنْكَرَ الإمام أَحْمَدُ تفسير أبي عبيد هذا وما ذكره في ذلك عن الأصمعي وغيره، وقال إنَّما العقيقة الذَّبح نفسه وهو قطع الأوداج والحلقوم، قال: ومنه قيل للقاطع رَحمه في أبيه وأمِّه عاقٌّ[30].

قلتُ: لعلَّ الإمام أحمد رحمه الله لاحظ معناها في الشَّرع خصوصًا وهو الذَّبح كما سبق، لذا قال ابن عبد البرِّ رحمه الله: «وَقَوْلُ أَحْمَدَ فِي مَعْنَى العَقِيقَةِ فِي اللُّغَةِ أَوْلَى مِنْ قَوْلِ أَبِي عُبَيْدٍ وَأَقْرَبُ وَأَصْوَبُ»[31] اهـ.

ويوضِّحه ويؤيِّده أنَّ النَّبيَّ ﷺ عقَّ عن الحسن والحسين وقال: «قولوا بسم الله والله أكبر اللَّهمَّ لك وإليك هذه عقيقة فلان»[32]، ونحن نتَّفق في مشروعيَّة العقِّ عنهما أمَّا الحلق فمسألةٌ أُخرى فيكون في هذا الحديث ردٌّ على من قاس حلْق شعر الأُنثى على الذَّكر بحجَّة العُموم؛ لأنَّه يُعقُّ

(27) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (3353)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (4133).

(28) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (4882)، والبيهقي في «الكبرى» (19293) وهو في «صحيح الجامع» (4132).

(29) أخرجه الطبراني في «الكبير» (11327)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (4107).

(30) «الاستذكار» (5 / 314).

(31) «التَّمهيد» (4 / 311).

(32) أخرجه عبد الرَّزَّاق في «مصنَّفه» (7936)، والبيهقي في «الكبرى» (19294) وحسَّنه النَّووي في «المجموع» (4106).

عنهما، فيبقى الحلق للأنثى يحتاج إلى دليل خاصٍّ.

ooo

سادسًا: فإن قال قائلٌ: العقيقة في اللُّغة تُطلق على الشَّعر وعلى الذَّبح فلماذا رجَّحتم الثَّاني دُون الأوَّل مع أنَّه أشهر؟

الجواب: قال العلَّامة الشِّنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلم أنَّ التَّحقيق حمل اللَّفظ على الحقيقة الشَّرعية ثمَّ العرفيَّة ثمَّ اللُّغوية ثمَّ المجاز عند القائل به إن دلَّت عليه قرينة»[33] اهـ.

ولا شكَّ هنا أنَّ الحقيقة الشَّرعية للعقيقة هي الذَّبح كما سبق في الأحاديث، لذَا رجَّحتُ المعنى الثَّاني الَّذي هو الذَّبح على المعنى الأوَّل الَّذي هو الشَّعر، قال الشَّيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفائدة معرفة تقسيم الحقيقة إلى ثلاثة أقسام: أن نحمل كلَّ لفظ على معناه الحقيقي في موضع استعماله، فيُحمل في استعمال أهل اللُّغة على الحقيقة اللُّغويَّة، وفي استعمال الشَّرع على الحقيقة الشَّرعيَّة، وفي استعمال أهل العُرف على الحقيقة العرفيَّة»[34] اهـ.

وممَّا يزيد التَّرجيح قوَّة اتِّفاق الحقائق الثَّلاث هنا على أنَّها الذَّبح، فلا حجَّة إذًا لمن قال: العقيقة في اللُّغة تُطلق على الشَّعر وعلى الذَّبح وقدَّم الشَّعر على أنَّه الأصل في العقيقة.

ooo

سابعًا: فإن قال قائل: حديث سمرة ابن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه الجمع بين الذَّبح والحلق والتَّسمية فهل الذَّبح والتَّسمية يختصَّان بالذَّكر فقط دون الأنثى حتَّى تقول إنَّ الأنثى لا يُحلق شعرها؟! فما تَقوله فيهما يُقال في الحلق؟

الجواب: الذَّبح والتَّسمية جاءت أدلَّة أخرى فيها التَّصريح بمشاركة الأنثى للذَّكر وأمَّا الحلقُ فلا ومن قال به فعليه بالدَّليل الخاصِّ؛ لأنَّ العُموم لا يصحُّ هنا كما سبق، ودلالةُ الاقترَانِ الَّتي أشرتَ إليها مع أنَّها ضعيفةٌ عند جمهور الأصوليِّين فإنَّها لا تَرد في مسألتنا هذه؛ لأنَّ الاقترَانَ في النَّظم لا يَستلزمُ الاقترَانَ في الحكم[35]، كما أنَّه قد يُجمع بين شيئين وإن اختلف حكمهما لما بينهما من الاشتراك في شيء آخر، فالذَّبح والحلق والتَّسمية وإن تفاوت حكمها بين الذَّكر والأنثى[36] فإنَّ بينها قدرًا مشتركًا وهو ما يُسنُّ للوالد فعلُه شكرًا لله بعد أن يُرزق بمولود.

ooo

ثامنًا: فإن قال قائل: هل قال بما رجَّحتم أحدٌ من أتباع السَّلف المعاصرين؟

الجواب: نعم صرَّح به من أئمَّة العصر أتباع السَّلف الإمام عبد العزيز ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: «السُّنَّة حلق رأس الطِّفل الذَّكر عند تسميته في اليوم السَّابع فقط، أمَّا الأنثى فلا يحلق رأسها؛ لقوله ﷺ: «كلُّ غلام مرتهن بعقيقته تذبح عند يوم سابعه ويحلق ويسمَّى» خرَّجه الإمام أحمد، وأصحاب السُّنن الأربع بإسناد حسن»[37]، وكذلك فقيه الزَّمان محمَّد ابن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: «شعر المولود يُحلق في اليوم السَّابع إذا كان ذكرًا، وأمَّا الأنثى فلا يحلق رأسها»[38]، وكذلك قالت به اللَّجنة الدَّائمة فتوى رقم (16025) والشَّاهدُ فيها قولهم: «ويستحبُّ حلق شعر رأس المولود الذَّكر في يوم سابعه»[39].

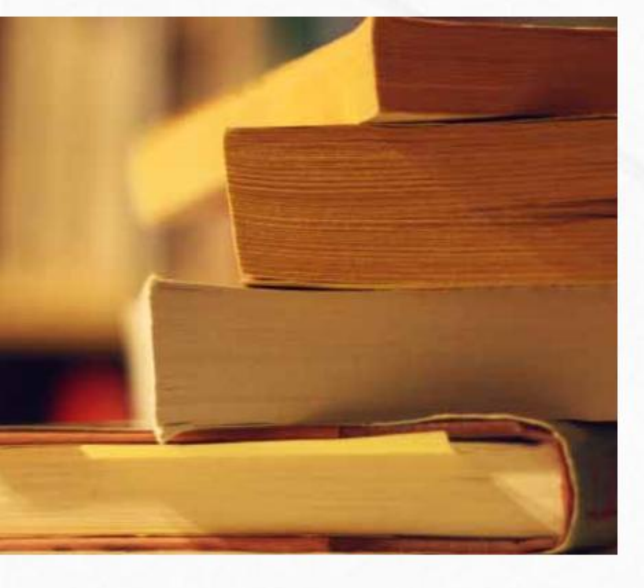
هذا ما فتح به عليَّ ربِّي الودُود في إيضاح مسألة حلق شعر المولود، فإنْ أصبتُ الحقَّ فيها فالمنَّة والفضل لله وحده وأبوء له بنعمته عليَّ، وإنْ كانت الأخرى فمن نفسي والشَّيطان، وإنِّي أستغفر الله وأتوب إليه من شرِّ ما صنعتُ وأبوء إليه بذنبي وأسأله أن يغفر لي فإنَّه لا يغفر الذُّنوب إلاَّ هو، وهو حسبي لا إله إلاَّ هو عليه توكَّلتُ وهو ربُّ العرش العظيم، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

ooo

(33) «مذكرة أصول الفقه» (ص210).
(34) «الأصول من علم الأصول» (ص20).

(35) لتحقيق الكلام عن دلالة الاقتران ينظر: «بدائع الفوائد» (4 / 989)، و«إرشاد الفحول» (2 / 197).
(36) في الذَّبح عن الذَّكر شاتان وعن الأنثى شاة واحدة، وفي الحلق يحلق للذَّكر دون الأنثى، وفي التَّسمية يشتركان.
(37) ينظر: «مجموع فتاوى ابن باز» (10 / 48).

(38) ينظر: «مجموع فتاوى ابن عثيمين» (25 / 215).
(39) ينظر: «مجموع فتاوى اللَّجنة الدَّائمة» (10 / 462).





أسباب وحدة الصَّف

فواز حمر العين
ليسانس في الشريعة الإسلامية. الجزائر

«من حاول إصلاح أمَّةٍ إسلاميَّة بغير دينها، فقد عرَّض وحدتها للانحلال وجسمها للتَّلاشي، وصار هادمًا لعرشها بنيَّة تشييده»[1].

***

إنَّ المتأمِّل والنَّاظر في حال الأمَّة الإسلاميَّة اليوم يكاد يتقطَّع قلبه ألمًا وحسرةً وأسفًا على ما آل إليه أمرها من انغماسٍ في الشَّهوات واتِّباع للشُّبهات، وتخلٍّ عن مصدر عزِّها، وتقليد لسراب الغرب الكافر؛ ممَّا أدَّى إلى تفرُّقها أيدي سبأ، وتشرذمها إلى أحزاب متباغضة متدابرة، وهانت على الله بعد أن كانت عزيزة منيعة، وجهلت بعد أن شرَّفها الله بعلم النُّبوَّة والرِّسالة.

إنَّ التَّفرُّق والاختلاف عذابٌ في الدُّنيا قبل الآخرة، فما زال أهل التَّفرُّق والاختلاف أذلَّة مهانين مستضعفين؛ لأنَّ من سُنن الله الكونيَّة أنَّ التَّفرُّق والتَّنازع سبيل الضَّعف والوهن والفشل.

(1) «آثار البشير الإبراهيمي» (1 / 8).

إنَّ التَّفرُّق والاختلاف من أكبر الأسباب الَّتي أدَّت إلى خذلان الأمَّة وإخفاقها في التَّعامل مع قضاياها، والحفاظ على حقوقها؛ فمفهوم الأمَّة الواحدة الَّذي نعتنا الله تعالى به في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾ [سُورَةُ المُؤْمِنُونَ]، وأمرنا بتحقيقه في كثير من النُّصوص يكاد ينعدم على المستوى السِّياسي الرَّسمي، وهو ضعيف جدًّا على المستوى الشَّعبي الجماهيري؛ ولذلك يستفرد الأعداء بمن شاؤوا من المسلمين فيطؤون أرضهم وديارهم، ويسفكون دماءهم، ويدمِّرون بلادهم، وينهبون ثرواتهم، ويفعلون بهم الأفاعيل، وتكرَّر ذلك كثيرًا في فلسطين وأفغانستان والعراق والشِّيشان والبوسنة وكوسوفا وسوريا وغيرها من بلاد المسلمين، وبقيَّة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بين متآمر ممالئ وبين متفرِّج عاجز إلاَّ مَنْ رحم الله تعالى وقليلٌ ما هم.

وذلك هو الهوان والخذلان العظيم، الَّذي ضُرب عليهم بسبب تفرُّقهم واختلافهم وتنازعهم، يقول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [سُورَةُ الأَنْفَالِ].

لقد ذهبت ريح المسلمين بسبب التَّفرُّق، وقُذفت المهانة في قلوبهم، وزالت مهابتُهم من قلوب أعدائهم، وأصابهم الوهن: حبُّ الدُّنيا وكراهيَّة الموت.

***

■ دواء هذا الدَّاء العضال:

اعلم أُخَيَّ ـ أرشدك الله إلى طاعته ـ أنَّ التَّفرُّق والاختلاف وإن كان واقعًا ـ كونًا وقدرًا ـ ولا مفرَّ منه، إلاَّ أنَّنا معشر المسلمين مكلَّفون ـ شرعًا ـ بالأخذ بأسباب القضاء عليه، والعمل على جمع كلمة المسلمين على الحقِّ المبين، إلاَّ أنَّ دعاة الإصلاح والباحثين في أحوال المسلمين اختلفت آراؤهم وأنظارهم في السُّبل والأسس الَّتي تجمع كلمة المسلمين على الحقِّ ـ بعد اتِّفاقهم على أنَّ الجسم الإسلامي مريض وأنَّ مرضه عضال ـ، ولست بحاجة ـ في هذا المقام ـ إلى ذكر

آراء مـن ضـلَّ عـن الحـقِّ في تشـخيص الدَّواء النَّاجع لهذا المرض المخيف، وإنَّما سـأكتفي بذكر رأي واحد فقط؛ هو الرَّأي المتين والحـقُّ المبـين، ومـا سـواه فباطل مهين، هو الرَّأي الَّذي هُديَ أصحابه - أوَّلاً - إلى تشخيص الدَّاء، ثمَّ وُفِّقوا - ثانيًا - إلى معرفة الدَّواء؛ هـو الرَّأي الَّذي «عرف أنَّ الجسم الإسـلامي لا مطمع في شفائه إلاَّ إذا عُولِج بالأشـفية القديمة الَّتي صَحَّ بها جسـم سـلفه، وغُذي بالأغذية الصَّالحة الَّتـي قَـويَ عليها سـلفه، وذلك أنَّـه أقام الدِّين فاسـتقامت له الدُّنيـا، وانقاد إلى الله فانقاد لـه عباد الله، وأخذ كتاب الله بقوَّة، فمشـى على نـوره إلى السَّـعادة في الدَّارين، وأرشـده على أن سـعادة الدُّنيا عزٌّ وسـلطان، وعدل وإحسان، وأنَّ سعادة الآخـرة حيـاة لا نصـب فيهـا ولا نهاية، واطمئنان لا خوف معه ولا كَدر في أثنائه، ورضوان من الله أكبر»[2].

وبعد هـذه الإطلالة أسـوق لك - أخي القارئ - العلاج النَّاجع والشِّفاء النَّافع.

فأقـول - مُختصـرًا الـكلام، مقتصرًا علـى ذكـر الأهـمِّ - وعلـى الله اعتمـادي واتِّكالي:

1. إنَّ أعظـم ما يجمع كلمة المسـلمين ويوحِّد صـفوفهم وينهض بهم إلى القمم؛ توحيـد الله ربِّ العالمين؛ توحيدًا خالصًـا في ربوبيَّتـه وألوهيَّته وأسـمائه وصـفاته، ونبـذ الشِّـرك؛ صـغيره وكبـيره، خفيِّـه وجليِّه، وما هو وسيلة إليه.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ].

قـال العلاَّمـة ابن سـعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير هذه الآية: «أي: قل لأهل الكتاب من اليهود والنَّصارى ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هلمُّـوا نجتمـع عليها، وهـي الكلمـة الَّتـي اتَّفـق عليهـا الأنبياء والمرسـلون، ولم يخالفهـا إلاَّ المعانـدون والضَّـالُّون، ليست مختصَّـة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا وبينكم، وهذا من العدل في المقال والإنصاف في الجدال».

وقـال تعـالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [سُورَةُ المُؤْمِنُونَ].

قال شـيخ الإسـلام ابـن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعـد أن ذكـر جملـة مـن الآيـات الآمرة بالاجتمـاع النَّاهية عـن التَّفرُّق والتَّشـيُّع إلى أحزاب، ومنهـا هذه الآية: «فظهر أنَّ سبب الاجتماع والألفة جمع الدِّين والعمل به كلِّه، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما أمر به باطنًا، وظاهرًا»[3].

وسئل العلاَّمة الشَّيخ صالح بن فوزان الفوزان عدَّة أسـئلة عن أسـباب ووسائل الاجتماع فأجاب حفظه الله بما يلي:

***

■ أسباب الاجتماع هي:

أولاً: تصحيح العقيـدة، بحيث تكـون سـليمة من الشِّـرك؛ قـال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾؛ لأنَّ العقيدة الصَّحيحة هي الَّتي تؤلِّـف بين القلوب، وتزيـل الأحقاد، بخـلاف ما إذا تعـدَّدت العقائد، وتنوَّعت المعبـودات؛ فـإنَّ أصحـاب كلِّ عقيـدة يتحيَّـزون لعقيدتهـم ومعبوداتهم، ويرون بطلان ما عليه غيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ].

ولهـذا كان العـرب في الجاهليَّـة مشـتَّتين، مستضـعفين في الأرض، فلمَّا دخلـوا في الإسـلام، وصَـحَّت عقيدتهم؛ اجتمعت كلمتهم، وتوحَّدت دولتهم...»[4].

وسـئل أيضًـا: هل يمكن الاجتماع مع اختلاف المنهج والعقيدة؟ فأجاب:

«لا يمكن الاجتماع مع اختلاف المنهج والعقيدة، وخير شاهد لذلك: واقع العرب قبل بعثة الرَّسول ﷺ، حيث كانوا متفرِّقين متناحرين، فلمَّا دخلوا في الإسلام، وتحت راية التَّوحيد، وصـارت عقيدتهم واحدة، ومنهجهـم واحـدًا؛ اجتمعـت كلمتهـم، وقامت دولتهم، وقد ذكَّرهم الله بذلك في قولـه تعـالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ].

وقـال تعالى لنبيِّـه ﷺ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [سُورَةُ الأَنفَالِ].

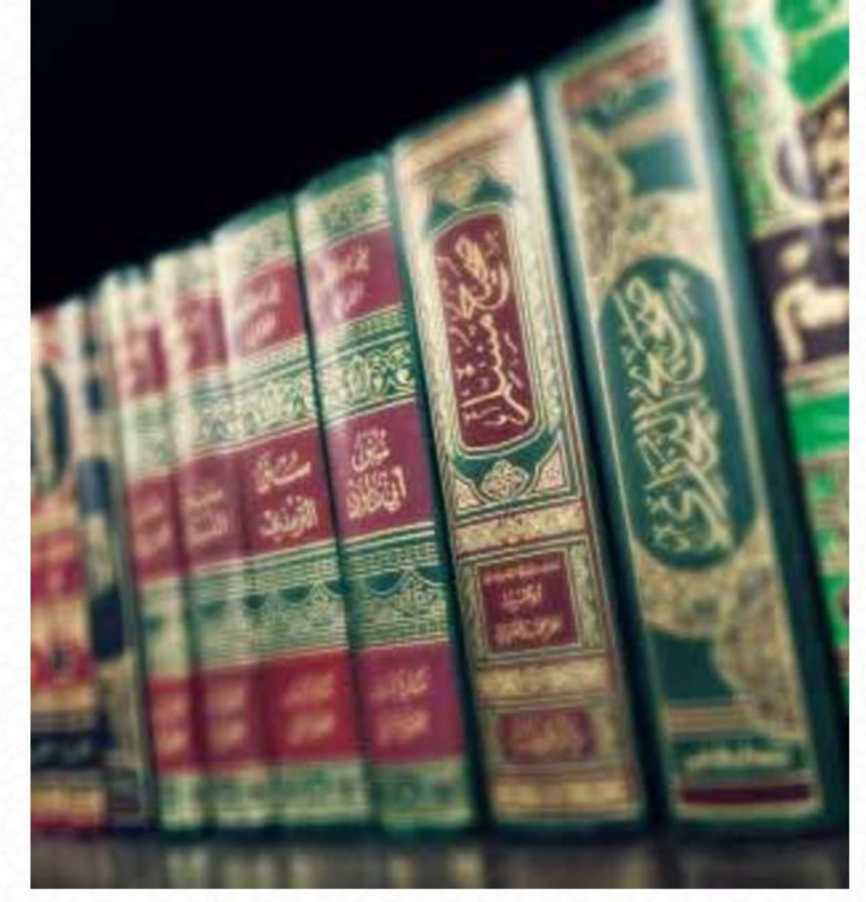
والله - سـبحانه - لا يؤلِّـف بـين قلـوب الكفرة والمرتدِّيـن والفرق الضَّـالَّة أبدًا، إنَّـما يؤلِّـف الله بـين قلـوب المؤمنـين الموحِّدين، قال تعالى في الكفَّار والمنافقين المخالفـين لمنهـج الإسـلام وعقيدته: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سُورَةُ الحَشْرِ].

وقال تعـالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [سُورَةُ هُودٍ]، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ وهم أهل العقيدة الصَّحيحة، والمنهج الصَّحيح؛ فهم الَّذين يسلمون من الاختلاف.

(2) «آثار الإمام الإبراهيمي» (4 / 310).

(3) «مجموع الفتاوى» (1 / 17).

(4) انظر: «الأجوبة المفيدة عن أسئلة المناهج الجديدة» (ص212).



فالَّذين يحاولون جمع النَّاس مع فساد العقيدة واختلاف المنهج يحاولون مُحالاً؛ لأنَّ الجمع بين الضِّدَّين من المحال.

فلا يؤلِّف القلوب، ويجمع الكلمة؛ سوى كلمة التَّوحيد، إذا عُرف معناها، وعُمل بمقتضاها ظاهرًا وباطنًا، لا بمجرَّد النُّطق بها مع مخالفة ما تدلُّ عليه؛ فإنَّها حينئذ لا تنفع»[5].

***

ثانيا: التَّمسُّك بالكتاب المبين وسنَّة سيِّد المرسلين، والعضُّ عليهما بالنَّواجذ، والفزع إليهما عند الشَّدائد، والاحتكام إليهما في كلِّ صغير وكبير، وفي كلِّ دقيق وجليل، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

قال الإمام أبو عمر ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعن مجاهد وعطاء وغيرهما في تأويل ذلك، قالوا: إلى الكتاب والسُّنَّة.

قال المزني: فذمَّ الله الاختلاف، وأمر عنده بالرُّجوع إلى الكتاب والسُّنَّة، فلو كان الاختلاف من دينه ما ذمَّه ولو كان التَّنازع من حكمه ما أمرهم بالرُّجوع عنده إلى الكتاب والسُّنَّة»[6].

وقد أمر نبيُّنا ﷺ أمَّته إذا دبَّت إليهم الفرقة والاختلاف أن يتمسَّكوا بسنَّته الغرَّاء، ويعضُّوا عليها بالنَّواجذ، فقال: «...فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، فَتَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[7].

وقال ﷺ في حديث الافتراق المشهور: «..وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً»، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟! قال: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»[8].

قال الإمام ابن بطَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يبيِّن سبب اجتماع كلمة السَّلف على عقيدة واحدة:

«فلم يزل الصَّدر الأوَّل على هذا جميعًا، على ألفة القلوب واتِّفاق المذاهب: كتاب الله عصمتهم وسنَّة المصطفى إمامهم، لا يستعملون الآراء ولا يفزعون إلى الأهواء، فلم يزل النَّاس على ذلك، والقلوب بعصمة مولاها محروسة والنُّفوس عن أهوائها بعنايته محبوسة»[9].

إنَّ الأمَّة الَّتي تُعنَى بكتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ أمَّة مرحومة معصومة من الكفر والضَّلال، قال تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٠١﴾ [سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني: أنَّ الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه؛ فإنَّ آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهارًا، وهو يتلوها عليكم ويبلِّغها إليكم»[10].

هذا؛ وعلى المتمسِّك بالسُّنَّة أن يحذر ويجتنب البدع صغارها وكبارها؛ فإنَّه ليس أضرّ على المسلمين ـ بعد الشِّرك بالله تعالى ـ مثل البدع القبيحة، ومن أعظم أضرارها على الأمَّة الإسلاميَّة ما تسبِّبه من تفرُّق وتباغض وتناحر، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والبدعة مقرونة بالفرقة، كما أنَّ السُّنَّة مقرونة بالجماعة، فيقال: أهل السُّنَّة والجماعة،

(5) انظر: «الأجوبة المفيدة عن أسئلة المناهج الجديدة» (ص225ـ226).

(6) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» (2 / 166).

(7) أخرجه أحمد (17145)، وأبو داود (4607)، والتِّرمذي (2676) وغيرهم من حديث العرباض ابن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وانظر «صحيح الجامع» (2549).

(8) أخرجه التِّرمذي (2641)، والحاكم (1 / 218) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، والطَّبراني في «الكبير» (7659) من حديث جماعة من الصَّحابة، وحسَّنه الشَّيخ الألباني بمجموع طرقه في «المشكاة» (171ـ التَّحقيق الثَّاني).

(9) «الإبانة الصُّغرى» (1 / 237).

(10) انظر: «تفسير ابن كثير» (2 / 86).

كما يُقال: أهل البدعة والفرقة»[11].

وقال العلاَّمة أبو إسحاق الشَّاطبي رحمه الله: «الفُرقة من أخصِّ أوصاف المبتدعة»[12].

***

ثالثًا: اتِّباع سبيل السَّلف الصَّالح من أصحاب رسول الله ﷺ والتَّابعين لهم بإحسان، والتَّمسُّك بهديهم وفهمهم، بل لا يسع مسلمًا أن يخرج عن طريقهم وفهمهم، وفاعل ذلك متوعَّد بوعيد شديد كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥ ﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

وفي حديث العرباض بن سارية وحديث عبد الله بن عمرو السَّابقين ذكرٌ لهذا الأصل وتنويهٌ به؛ ففي حديث العرباض: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ..»، وفي حديث عبد الله بن عمرو: «..وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً»، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟! قال: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»، فقرن النَّبيُّ ﷺ بين سنَّته وسنَّة خلفائه الرَّاشدين وأصحابه الغرِّ الميامين، وجعل اتِّباع سنَّته وسنَّتهم كفيلاً بالنَّجاة من الاختلاف والتَّفرُّق المذموم، وسبيلاً إلى الاجتماع على الحقِّ.

قال الإمام البربهاري رحمه الله: «والأساس الَّذي تُبنى عليه الجماعة هم أصحاب محمَّد ﷺ ورحمهم الله أجمعين»[13].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وكما أنَّه لم يكن في القرون أكمل من قرن الصَّحابة، فليس في الطَّوائف بعدهم أكمل من أتباعهم، فكلُّ من كان للحديث والسُّنَّة وآثار الصَّحابة أتبع كان أكمل، وكانت تلك الطَّائفة أَوْلى بالاجتماع والهدى والاعتصام بحبل الله، وأبعد عن التَّفرُّق والاختلاف والفتنة، وكلُّ من بَعُدَ عن ذلك كان أبعد عن الرَّحمة وأدخل في الفتنة»[14].

***

رابعًا: لزوم جماعة المسلمين وإمامهم، وعدم الخروج عليه...

وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة في النُّصوص الشَّرعية فالمراد بها الجماعة المنتظمة تحت إمامها، كما قرَّر ذلك الإمام ابن جرير رحمه الله، حيث قال: «والصَّواب أنَّ المراد من الخبر لزوم الجماعة الَّذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره، فمن نكث بيعته خرج عن الجماعة»[15].

يؤكِّد ذلك ما جاء في حديث حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه المشهور في الفتن: «كان النَّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشَّرِّ مخافة أن يدركني»، وفيه قوله ﷺ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[16].

وقد عَنْوَن الإمام النَّووي رحمه الله لهذا الحديث بـ: «باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كلِّ حال، وتحريم الخروج على الطَّاعة ومفارقة الجماعة».

قال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رحمه الله في الأصل الثَّالث من «الأصول السِّتَّة»:

«من تمام الاجتماع السَّمع والطَّاعة لمن تأمَّر علينا، ولو كان عبدًا حبشيًّا؛ فبيَّن الله هذا بيانًا شائعًا كافيًا؛ بوجوه من أنواع البيان شرعًا وقدرًا، ثمَّ صار هذا الأصل لا يُعرف عند أكثر من يدَّعي العلم، فكيف العمل به».

(11) انظر: «الاستقامة» (1 / 42).
(12) انظر: «الاعتصام» (1 / 113).
(13) انظر: «شرح السُّنَّة» (ص67).
(14) انظر: «منهاج السُّنَّة النَّبويَّة» (6 / 368).
(15) «فتح الباري» (13 / 47).
(16) رواه البخاري (3606)، ومسلم (1847)، وغيرهما من حديث حذيفة بن اليمان.

فلا ديـن إلاَّ بجماعـة، ولا جماعة إلاَّ بإمامة، ولا إمامة إلاَّ بسمع وطاعة.

فهـذه الثَّلاثـة متلازمة آخذ بعضـها ببعض، فلا قِوام لسـوق الإسـلام وقيام جماعة المسلمين وصـلاحهم في معاشهم ومعادهم إلاَّ بها.

***

خامسا: التَّمسُّك بغرز العلماء الأكابر من أهل السُّنَّة والبصائر، الَّذيـن يثـق بدينهـم وعلمهـم وأمانتهم الجاهـل والحائـر، والرُّجـوع إليهم عند حلول الفتن والخطوب المدلهمَّة..

قـال تعـالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

قال العلاَّمـة ابن سـعدي رَحِمَهُ اللهُ: «هذا تأديب مـن الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللاَّئـق، وأنَّـه ينبغي لهـم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمَّة والمصالح العامَّة ما يتعلَّق بالأمن وسـرور المؤمنين، أو بالخوف الَّذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبَّتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردُّونه إلى الرَّسول وإلى أُولي الأمـر منهم، أهـل الرَّأي والعلم والنُّصـح والعقل والرَّزانـة، الَّذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدَّها».

فالتَّمسُّـك بغـرز علمـاء أهل السُّـنَّة النَّاصحين حِرْزٌ وأمانٌ من الفتنة والفرقة والبدعة.

خـرَّج الإمـام مسـلم في «صـحيحه» (191) مـن حديـث يزيـد الفقيـر قال: «كنت قد شَـغَفَنِي رأي مـن رأي الخوارج، فخرجنـا في عصـابة ذوي عـدد نريد أن نحـجَّ ثمَّ نخرج علـى النَّاس. قال: فمررنا على المدينة، فإذا جابر بن عبد الله يحدِّث القوم - جالس إلى سـارية - عن رسول الله ﷺ، قال: فـإذا هو قد ذكـر الجهنَّميِّين، قال: فقلت له: يا صـاحب رسـول الله! ما هذا الَّذي تحدِّثون؟ والله يقول: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: 129] و﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا ﴾ [الحج: 22] فمـا هـذا الَّذي تقولون؟ قـال: فقال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: فهل سمعت بمقام محمَّد عَلَيْهِ السَّلَامُ، يعنـي الَّـذي يبعثـه الله فيه؟ قلت: نعم، قال: فإنَّه مقـام محمَّد ﷺ المحمود الَّذي يُخْرِج الله به من يخرج، قال: ..غير أنَّـه قد زعـم أنَّ قومًا يخرجـون من النَّار بعد أن يكونوا فيها...

فرجعنـا، قلنا: ويحكم أترونَ الشَّـيخَ يكذب على رسول الله ﷺ؟!

فرجعنا، فـلا والله! ما خرج منَّا غير رجل واحد».

«فهـذه العصـابة جـاؤوا إلى الحـجِّ وقد ابتُلوا بفهم خاطئ، وهو أنَّ أصـحابَ الكبائـر لا يخرجـون مـن النَّـار، وحملوا الآيات الَّتي وردت في الكفَّار على المسلمين أيضًـا، وهـذا مـن عقيدة الخـوارج، وقد أرادت هذه العصابة أن تظهر على النَّاس بهذه العقيدة الباطلـة بعد الحجِّ، لكن في هذه الرِّحلـة الميمونة وفَّقهم الله للالتقاء بجابـر بـن عبـد الله الأنصـاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فأوضـح لهم فسـاد فهمهـم، فعدلوا عمَّا كانوا عزموا عليـه، ولم يخرج منهم بهذا الباطل إلاَّ واحد منهم»[17].

***

هذه أهـمُّ الأسـباب الكفيلـة باجتماع المسـلمين على الحـقِّ، وإلاَّ فهناك أسـباب أخرى تعين على تحقيق هذا المقصد العظيم، آثرت عدم ذكرها خشية الإطالة، ولأجل أنَّها مندرجة تحت الأسباب الَّتي ذكرتها.

هذا؛ وأسـأل الله العظيم ربَّ العرش الكريم أن يجمع كلمة المسلمين على الحقِّ المبين، إنَّ ربِّي لقويٌّ متين.

***

(17) انظر: «شرح حديث جبريل في تعليم الدِّين» لفضيلة الشَّيخ العلاَّمة عبد المحسن العبَّاد (10).

إزالة الالتباس ورد شبهة رواية البخاري عن الروافض الأنجاس



جمال الدين معمري
ماستر علوم القرآن. جامعة الجزائر

إنَّ من نعم الله على هذه الأمَّة الإسلامية - زادها الله شرفًا - أن تولَّى جلَّ وعلا حفظ دينها بنفسه ولم يَكِلْ ذلك لأحد سواه قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر].

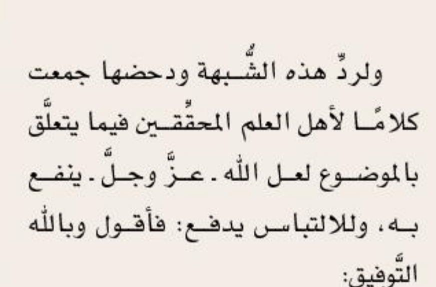


ومن تمام حفظ الله تعالى لدينه أن قيَّض له رجالاً حفظوه لنا ودوَّنوه بصدق وإخلاص وأمانة.

ويعدُّ الإمام البخاري رحمه الله من هؤلاء فصنَّف لنا أصحَّ كتاب بعد القرآن الكريم بإجماع الأمَّة على ذلك[1] ورغم مكانة هذا السِّفْر العظيم إلاَّ أنَّ بعض المشكِّكين كانوا ولازالوا يوردون بعضَ الشُّبه والطُّعون، ولعلَّ من أهمِّ هذه الشُّبه رواية البخاري عن بعض أهل التَّشيُّع.

***

ولردِّ هذه الشُّبهة ودحضها جمعت كلامًا لأهل العلم المحقِّقين فيما يتعلَّق بالموضوع لعل الله - عزَّ وجلَّ - ينفع به، وللالتباس يدفع: فأقول وبالله التَّوفيق:



أوَّلاً: إنَّ ما عليه جمهور أهل العلم بالحديث رواية ودراية قبول رواية المبتدع أو صاحب البدعة ما لم تكن مكفرة[2]، وهو مذهب الشَّافعي وابن المديني، وابن الصَّلاح، والحافظ الذَّهبي، وابن حجر وابن القيِّم... وغيرهم وهذا ليس خاصًّا بالبخاري رحمه الله قال الحافظ العراقي[3] في «ألفيَّته»:

والخلف في مبتدع ما كُفِّرَا
قيل يُرَدُّ مُطلَقًا واستُنْكِرا
والأكثرون ورآه الأعدلا
رَدُّوا دعاتَهم فقط ونَقَلا
فيه ابنُ حبَّان اتفاقًا[4] ورَوَوْا
عن أهل بدع في الصَّحيح ما دَعَوْا

ooo

ثانيًا: القاعدة عند المحدِّثين في الجرح والتَّعديل أن من أخرج له أحد الشَّيخين «فقد جاوز القنطرة»، قال الحافظ ابن حجر[5]: «فهو بمثابة إطباق الجمهور على تعديل من ذكر فيهما...، وكان الشَّيخ أبو الحسن المقدسي يقول في الرَّجل الَّذي يخرج عنه في «الصَّحيحين»: «هذا رجل جاز القنطرة» قال القشيري (ابنُ دقيق العيد) وهكذا نعتقد وبه نقول...»».

وقال الألباني في تعليقه على «شرح الطحاويَّة» (1 / 22): «حتَّى صار عرفًا عامًّا أنَّ المحدِّث إذا أخرج له الشَّيخان أو أحدهما فقد جاوز القنطرة ودخل في طريق الصحَّة والسَّلامة ولا ريب في ذلك وأنَّه هو الأصل عندنا».

ooo

(1) انظر: «شرح مسلم» للنووي (1 / 14)، «عمدة القاري» (1 / 5)، «فيض القدير» للمناوي (2 / 47)، «تدريب الرَّاوي» للسُّيوطي (1 / 96)، «مقدِّمة ابن الصَّلاح» (ص160).

(2) انظر: «الكفاية في علوم الرِّواية» للخطيب البغدادي (ص153)، «الباعث الحثيث» (ص99)، «الثقات» لابن حبَّان (6 / 140)، «النُّكت على مقدِّمة ابن الصَّلاح» (3 / 397).

(3) «ألفية العراقي» (التَّبصرة والتَّذكرة في علوم الحديث) (ص120).

(4) نقل هذا في كتابه «الثقات» (6 / 140) حيث قال: «وَلَيْسَ بَين أهل الحَدِيث من أَئمَّتنَا خلاف أَن الصَّدوق المتقن إذا كَانَ فِيه بِدعَة وَلم يكن يَدْعُو إِلَيْهَا أَن الاحْتِجَاج بأخباره جَائِز».

(5) «فتح الباري» (1 / 384).



ثالثًا: ينبغي التَّفريق بين مصطلح التشيُّع عند المتقدِّمين والتشيع عند المتأخرين، جاء في «تهذيب التَّهذيب» (1 / 181)».

«فالتشيُّع عند المتقدِّمين هو اعتقاد تفضيل عليٍّ على عثمان وربَّما اعتقد أنَّ عليًّا أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ وإذا كان معتقدًا ذلك ورِعًا دَيِّنًا صادقًا مُجتَهِدًا فلا تُرَدُّ روايتُه بهذا، وأمَّا التَّشيُّع في عرف المتأخِّرين (يقصد في زمانه رحمه الله) فهو الرَّفض المحض، فلا تُقبَل روايةُ الرَّافضي الغالي ولا كرامة».

وقال الذَّهبي رحمه الله في ترجمة أبان ابن تغلب[6]: «البدعة على ضربين: فبدعة صغرى كغلوِّ التشيُّع، أو كالتشيُّع بلا غلوٍّ ولا تحرُّف، فهذا كثير في التَّابعين وتابعيهم مع الدِّين والورع والصِّدق، فلو رُدَّ حديثُ هؤلاء لذهب جملةٌ من الآثار النَّبويَّة، وهذه مفسدة بيِّنة، ثمَّ بدعة كبرى، كالرَّفض الكامل والغلوِّ فيه، والحطِّ على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والدُّعاء إلى ذلك، فهذا النَّوع لا يحتج بهم ولا كرامة.

(6) «ميزان الاعتدال في نقد الرِّجال» (1 / 6).

فالشِّيعي الغالي في زمان السَّلف وعُرْفِهم هو من تكلَّم في عثمان والزُّبير وطلحة ومعاوية وطائفة ممَّن حارب عليًّا رضي الله عنه، وتعرَّض لسبِّهم والغالي في زماننا وعُرْفنا هو الَّذي يكفِّر هؤلاء السَّادة، ويتبرَّأ من الشَّيخين أيضًا، فهذا ضالٌّ مُعَثَّر» اهـ.

هذا في زمانه رحمه الله فماذا عن روافض هذا الزَّمان فالشِّرك إزارهم والتقيَّة والنِّفاق دثارهم!!

ooo

رابعًا: أسماء الرواة الَّذين اتُّهموا بالتشيُّع لا تزيد على الثَّمانية كما ذكرهم الحافظ ابن حجر في «مقدِّمة الفتح» وهؤلاء لم يروِ لهم البخاري رحمه الله إلاَّ في الشَّواهد والمتابعات، أو مقرونًا بغيرهم، فمثلاً ممَّن رمي بالتشيُّع وروى له البخاري: عبَّاد بن يعقوب الرَّواجني.

قال الحافظ المِزِّي في ترجمته[7]: «روى عنه البخاري حديثًا واحدًا مقرونًا بغيره».

ooo

خامسًا: رواية البخاري رحمه الله لهؤلاء من باب المصلحة والمفسدة، فمفسدة ضياع السنَّة والدِّين أعظم من مفسدة الرِّواية عن بعض أهل التشيُّع[8].

قال السَّخاوي: «فَيَنْبَغي أَنْ تُقَدَّمَ مَصلحةُ تَحصيل ذلك الحديث ونشرِ تلك السُّنَّة على مصلحة إهانته وإطفاءِ بِدعته»[9].

ooo

سادسًا: قال جمال الدِّين القاسمي: «إنَّ كثيرًا ممَّن رمي بالتشيُّع من رواة الصَّحيحين لا تعرفهم الشِّيعة أصلاً، وقد راجعت من كتب رجال الشِّيعة كتاب: «الكشي» و«النجاشي» فما رأيت من رماهم السُّيوطي نقلاً عمَّن سلفه بالتشيُّع في كتابه «التَّقريب» ممَّن خرج لهم الشَّيخان وعدَّهم خمسة وعشرين إلاَّ راويين وهما أبان بن تغلب وعبد الملك بن أعين، ولم أر للبقيَّة في ذينك الكتابين ذكرًا، وقد استفدنا بذلك علمًا مهمًّا، وفائدة جديدة وهي أنَّه ينبغي الرُّجوع في المرمي ببدعة إلى مصنَّفات رجالها فيها يظهر الأصيل من الدَّخيل والمعروف من المنكور، وحتَّى ينثلج بها الصَّدر...، فتنبَّهْ لهذه الفائدة واحرصْ عليها»[10].

وبهذا تتبيَّن دقَّةُ الإمام البخاري رحمه الله في تدوين كتابه «الصَّحيح» الَّذي يبقى أصحَّ كتاب بعد كتاب ربِّ العالمين مفخرةً للمسلمين يتدارسونه جيلاً بعد جيل وصدق القائل[11]:

صحيح البخاري لو أنصفوه
لما خطَّ إلاَّ بماء الذَّهب
أسانيد مثل نجوم السَّماء
أمام متون مثل الشُّهب

فرحم الله الإمام البخاري وأجزل له المثوبة وجمعنا وإيَّاكم وإيَّاه في دار كرامته ومستقرِّ رحمته.

والحمد لله أوَّلاً وآخرًا وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.

***

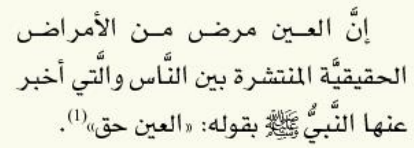
(7) «تهذيب الكمال في أسماء الرِّجال» (14 / 175).
(8) وكما أسلفت التشيُّع في عرف المتقدِّمين.
(9) «فتح المغيث بشرح ألفية الحديث» (2 / 63).

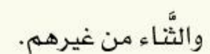
(10) «قواعد التَّحديث من فنون مصطلح الحديث» (ص190).
(11) هو الفضل بن إسماعيل الجرجاني، انظر: «تاريخ دمشق لابن عساكر» (52 / 74).

الحسد والعين



د. سعود الدعجان
الجامعة الإسلاميَّة بالمدينة النَّبويَّة





إنَّ العين مرض من الأمراض الحقيقيَّة المنتشرة بين النَّاس والَّتي أخبر عنها النَّبيُّ ﷺ بقوله: «العين حق»[1].

وربَّما تَسَبَّبت العين في موت المصاب بها؛ قال ﷺ: «أكثر من يموت من أمَّتي بعد كتاب الله عز وجل وقضائه وقدره بالأنفس - يعني: العين -»[2].

وفي رواية: «العين تُدخل الرَّجلَ القبرَ، والجملَ القِدْرَ» حسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (4144)، وفي رواية: «العين حقٌّ ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا»[3].

ooo

ومع إخبار النَّبيِّ ﷺ بأنَّ العين حقٌّ، وأنَّه مرض قد يؤدِّي إلى الموت إلاَّ أنَّه ينبغي ألاَّ يقع النَّاس في الأوهام والوساوس بمجرَّد إصابتهم ببعض الأمراض النفسيَّة أو العضوية، واتِّهام غيرهم بالحسد، وإصابتهم بالعين بمجرَّد سماعهم شيئًا من المدح والثَّناء من غيرهم.

ooo

وقد كان النَّبيُّ ﷺ يستعيذ بالله من عين الإنس والجانِّ والحسد، فلمَّا نزلت سورة الفلق والنَّاس اكتفى بهما، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوَّذ من عين الجان، ثمَّ أعين الإنس، فلمَّا نزلت المعوِّذتان أخذ بهما، وترك ما سوى ذلك»[4].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ جبريل أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: «يا محمَّد اشتكيت؟ فقال: نعم، قال: بسم الله أرقيك، من كلِّ شيء يؤذيك، من شرِّ كلِّ نفس أو عين حاسد الله يشفيك، بسم الله أرقيك»[5].

وكان النَّبيُّ ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين، ويقول: «إنَّ أباكما كان يعوِّذ بهما إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامَّة من كلِّ شيطان وهامَّة ومن كلِّ عين لامَّة»[6].

ooo

وصورة الإصابة بهذا المرض هو أن يكون بعض النَّاس متميِّزًا بذكائه أو شجاعته أو جماله فينظر إليه أحد النَّاس نظرة حسد - وهو الغالب - أو نظرة إعجاب ولا يذكر الله فيترتَّب على ذلك مرض هذا الرَّجل الذَّكي أو الشُّجاع بسبب هذه النَّظرة الَّتي صاحَبَها وصفٌ بدون ذِكرِ الله، ويتَّفق أن المعيون لم يحصِّن نفسه بالأذكار ويكون معها الشَّيطان لأنَّه يحضر في الأماكن الَّتي لا يذكر فيها الله، فيؤثِّر ذلك في المعيون فيمرض بإذن الله.

قال ﷺ: «العين حقٌّ ويحضر بها الشَّيطان وحسد ابن آدم»[7].

قال ابن حجر: «وقد أشكل ذلك على بعض النَّاس فقال: كيف تعمل العين من بُعد حتَّى يحصل ضرر للمعيون، وكثير من النَّاس يسقم بمجرَّد النَّظر إليه وتضعف قواه، وكلُّ ذلك بواسطة ما خلق الله تعالى في الأرواح من التَّأثيرات، ولشدَّة ارتباطها بالعين نسب الفعل إلى العين، وليست هي المؤثِّرة وإنَّما التَّأثير للرُّوح.... فالَّذي يخرج من عين العائن سهم معنوي، إن

(1) رواه البخاري (5740)، ومسلم (2187).
(2) «السُّنَّة» لابن أبي عاصم (310)، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (747).
(3) مسلم (2188).
(4) رواه ابن ماجه (3511) وصحَّحه الألباني.
(5) مسلم (2186).
(6) البخاري (3371).
(7) رواه أحمد في «المسند» (9668) وفيه ضعف.

صادف البدن الَّذي لا وقاية له، أثّر فيه، وإلاَّ لم ينفذ السَّهم، بل رُدَّ على صاحبه: كالسَّهم الحسي سواء»[8].

○○○

فالعين تحدث بسبب الإعجاب وبسبب الحسد، قال ابن حجر: «إنَّ العين تكون مع الإعجاب ولو بغير حسد ولو من الرَّجل المحب ومن الرَّجل الصَّالح»[9].

○○○

□ أمَّا حصول العين بسبب الإعجاب ففي زمن النَّبيِّ ﷺ أصيب سهل بن حنيف رضي الله عنه بمرض العين بسبب نظر عامر ابن ربيعة رضي الله عنه إليه وهو يغتسل، نظرة إعجاب من شدَّة بياض بشرته. فعن أبي أمامة ابن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: «اغتسل أبي - سهل بن حُنيف - بالخرَّار - واد في المدينة - فنزع جُبَّةً كانت عليه وعامر بن ربيعة ينظر إليه، وكان سهل شديد البياض حسن الجلد، فقال عامر: ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبَّأة، فوُعِك سهل مكانه واشتدَّ وعكه فأُخبِر رسول الله ﷺ بوعكه فقيل له: ما يرفع رأسه، فقال: تتَّهمون له أحدًا؟ قالوا: عامر بن ربيعة، فدعاه رسول الله ﷺ فتغيَّظ عليه فقال: «علام يقتل أحدكم أخاه؟ ألا برَّكت؟ اغتسل له» فغسل عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح ثمَّ صُبَّ عليه من ورائه فبرأ سهل من ساعته» وفي رواية: «إذا رأى أحدكم من نفسه أو ماله أو أخيه ما يحبّ فليُبَرّك فإنَّ العين حق»[10].

○○○

(8) «فتح الباري» (10 / 212).
(9) «فتح الباري» (10 / 215).
(10) رواه أحمد (15980) والحاكم (3 / 411) وصحَّحه الألباني.

□ وأمَّا حصولها بسبب الحسد فهو مرض آخر من جهة العائن فيكون أشدَّ إثمًا.

○○○

والحسد نوعان: ممدوح، ومذموم.

أمَّا الممدوح فهو الَّذي يسمَّى الغبطة وهو أن يتمنَّى المسلم مثل ما عند أخيه من الخير من غير أن يتمنَّى زواله كما قال ﷺ: «لا حسد إلاَّ في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء اللَّيل وآناء النَّهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»[11].

○○○

وأمَّا الحسد المذموم فهو تمنِّي زوال النِّعمة عن المحسود.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الحسد مرض من أمراض النَّفس، وهو مرض غالب، فلا يخلص منه إلاَّ القليل من النَّاس، ولهذا يُقال: «ما خلا جسد من حسد»، لكنَّ اللَّئيم يبديه والكريم يخفيه».

وقد قيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ فقال: ما أنساك إخوة يوسف، لا أبا لك، ولكن غُمَّهُ في صدرك، فإنَّه لا يضرُّك ما لم تَعْدُ به يدًا ولا لسانًا»[12].

وقال سفيان بن عيينة: «الحسد أوَّل ذنب عُصي الله به في السَّماء - يعني حسد إبليس لآدم عليه السلام - وأوَّل ذنب عصي الله به في الأرض - يعني حسد ابن آدم أخاه حتَّى قتله -»[13].

قال معاوية رضي الله عنه: «ليس خصال الشرِّ أعدل من الحسد يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود»، وفي رواية عنه قال:

(11) البخاري (7529)، مسلم (815).
(12) «الفتاوى» (10 / 125)، وانظر: كتاب «كيف تعالج مريضك بالرُّقية الشَّرعيَّة» للدُّكتور عبد الله السَّدحان.
(13) «المجالسة» للدِّينَوَري (659).

«كلُّ النَّاس أقدر على رضاه إلاَّ حاسد نعمة فإنَّه لا يرضيه إلاَّ زوالها»، ولذلك قيل:

كلّ العداوات قد ترجى إماتتها
إلاَّ عداوة من عاداك من حسد

وقد جاءت أحاديث كثيرة عن النَّبيِّ ﷺ تذمُّ الحسد وتحذِّر منه، منها:

قوله ﷺ: «دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد، والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشَّعر، ولكن تحلق الدِّين» رواه التِّرمذي (2510) وهو حسن بشواهده.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إيَّاكم والظنَّ فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[14].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إذا فتحت عليكم فارس والرُّوم أي قوم أنتم؟» قال عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه نقول: كما أمرنا الله، قال رسول الله ﷺ: «أَوَ غَيْرُ ذَلِك؟ تتنافسون، ثمَّ تتحاسدون، ثمَّ تتدابرون، ثمَّ تتباغضون أو نحو ذلك ....»[15].

○○○

والمسلم الَّذي يقنع بقضاء الله وقدره وعطائه يقلّ وقوع الحسد منه وهذا مانع له - بإذن الله - من إصابة أخيه المسلم بالعين.

قال بعض الحكماء: «من رضي بقضاء الله لم يسخطه أحد، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد».

وقال الحسن رحمه الله: «يا ابن آدم لم تحسد أخاك؟ فإن كان الَّذي أعطاه

(14) البخاري (6066) ومسلم (2563).
(15) مسلم (2962).

لكرامته عليه، فلم تحسد من أكرمه الله؟ وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النَّار».

وقال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما حسدت أحدًا على شيء من الدُّنيا، إن كان من أهل الجنَّة فكيف أحسده على شيء من الدُّنيا وهو يصير إلى الجنَّة؟ وإن كان من أهل النَّار فكيف أحسده على شيء من الدُّنيا وهو صائر إلى النَّار»[16].

وممَّا يعين على ترك الحسد تقوى الله والصَّبر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «من وجد في نفسه حسدًا لغيره فعليه أن يستعمل معه التَّقوى والصَّبر، فيكره ذلك من نفسه»[17].

وكذلك ممَّا يقي من الحسد - بإذن الله - ذكر الموت قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما أكثر عبد ذكر الموت إلاَّ قلَّ فرحه وقلَّ حسده».

ooo

ومن الأسباب الَّتي تقي من العين والحسد:

1. المحافظة على أذكار الصَّباح والمساء الَّتي تكون حصنًا - بإذن الله - من عين كلِّ حاسد.

2. المداومة على قراءة سورة الفلق والنَّاس، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يتعوَّذ من عين الجان، ثمَّ أعين الإنس فلمَّا نزلت المعوِّذتان أخذ بهما، وترك ما سوى ذلك»[18].

3. الحذر من إظهار بعض النِّعم - من مال أو جاه أو جمال - أمام النَّاس بشيء من الفخر والخيلاء، فيسبِّب لهم الحسد من غيرهم، فتصيبهم العين بعد ذلك.

والواجب على المسلم إذا ما رأى ما يعجبه في نفسه أو أخيه أو وقع في نفسه الحسد أن يذكر الله كأن يقول: «ما شاء الله» أو يقول: «اللَّهمَّ بارك فيه أو عليه» قال ﷺ: «إذا رأى أحدكم من نفسه أو ماله أو أخيه ما يحب فليُبَرِّك فإن العين حق».

ooo

وإن قدَّر الله وأصيب المسلم بالعين فيكون العلاج بأحد أمرين:

1. الاغتسال بوضوء العائن في حال معرفته قال ﷺ: «وإذا استُغسِلتم فاغسلوا».

2. الرُّقية الشَّرعية قال ﷺ: «لا رقية إلاَّ من عين أو حُمَة»[19].

ولا يجوز الذَّهاب إلى السَّحرة والكهنة والمشعوذين والعرَّافين من أجل العلاج لنهي النَّبيِّ ﷺ عن ذلك وحكمه على من فعل ذلك بالكفر قال عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ﷺ: «من أتى ساحرًا أو كاهنًا أو عرَّافًا فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمَّد ﷺ»[20].

أسأل الله تعالى أن يطهِّر قلوبنا من النِّفاق والحسد وألسنتنا من الكذب وأعيننا من الخيانة وأن يؤلِّف بين قلوب المسلمين ويصلح ذات بينهم إنَّه سميع مجيب.

وصلَّى الله وسلم وبارك على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ooo

(16) «الزُّهد الكبير» للبيهقي (845).
(17) «الفتاوى» (10/126).
(18) رواه ابن ماجه وصحَّحه الألباني.

(19) رواه أبو داود (3884).

(20) أبو يعلى (5408) والبيهقي (8 / 136) وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (3048).





أ.د.محمد علي فركوس

أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

في كيفية قسمة شقَّةٍ موروثةٍ

■ السؤال:

تُوفِّيت امرأةٌ وتركتْ بيتًا هو عبارةٌ عن شقَّة، دفعتْ جزءًا من ثمنها للدَّولة، وتُوفِّيتْ ولم تُكملْ دفْعَ الباقي، ولا بدَّ من دفع بقيَّة الثَّمنِ حتَّى يُمتلكَ البيتُ.

السُّؤال: إذا أتمَّ الورثةُ أو أحدُهم دفْعَ المستحقَّات وتمَّ صدورُ العقدِ وامتُلك البيتُ؛ فإنْ أراد أحدُهم أو بعضُهم أخْذَ نصيبِه فكيف تكون القسمةُ في هذه الحالةِ؟

وإذا أراد الورثةُ جميعًا إبقاءَ البيت على ما هو عليه؛ فكيف يكون إجراءُ العقدِ في هذه الحالةِ كذلك؟

○○○

■ الجواب:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فإذا أراد الورثةُ امتلاكَ الشَّقَّة قُوِّمَ عليهم ما بقي دفعُه بحسَبِ أَسْهُمِهم في الميراثِ، ويدفع كلٌّ واحدٍ منهم ما يلزمه لإتمامِ العقدِ، ويكون جميعُهم مشتركين فيه كلٌّ بحسَبِ حقِّه في الإرثِ، فإنْ كانتِ الجهةُ البائعةُ لا تمنح العقدَ إلَّا لفرد واحدٍ اسْتُتْبِعَ ذلك بعقدٍ إضافيٍّ رسميٍّ موثوقٍ ضُمَّ إليه بقيَّةُ الورثةِ في ملكيَّةِ الشَّقَّة ضمانًا لحقِّهم، على أنْ تكونَ مصاريفُ التَّوثيقِ على بقيَّتهم.

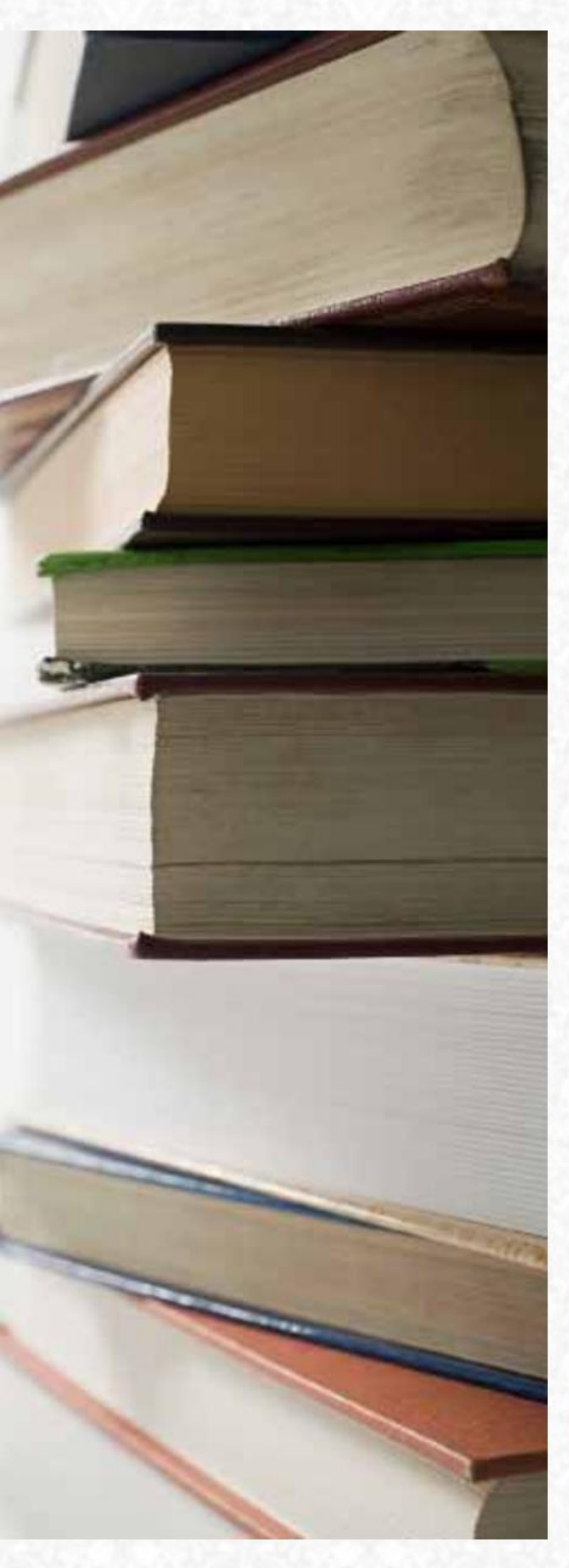
وأمَّا إنْ أراد أحدُهم أنْ يأخذَ لنفسه الشَّقَّةَ دون سائرِ الورثةِ بعد حصولِ الاتِّفاقِ بينهم، قُوِّمَتْ عليه الشَّقَّةُ قيمةَ عدلٍ بسعرِ السُّوقِ المتداوَلِ، ثمَّ يدفع فيها إلى بقيَّةِ الورثةِ حقَّهم ويستأثر بها لنفسه ما لم يتنازلوا له عنها بدونِ عوضٍ ماليٍّ.

وأمَّا إن حصل بينهم خلافٌ في أمرِ الشَّقَّة أو لم يقدرْ أحدُ الورثةِ أنْ يدفعَ أَنْصِبَةَ الجميع؛ فللورثة أنْ يبيعوا الشَّقَّةَ بسعرِ السُّوق ـ كما تقدَّم ـ، ويأخذُ مَن دفع بقيَّةَ مالِ الشَّقَّة حقَّه قبل توزيعِ التَّركة وكذا مصاريفَ البيعِ والتَّوثيق، ثمَّ يُقسمُ مالُ الشَّقَّةِ بحسَبِ نصيبِ كلِّ مستحقٍّ.

والعلم عند الله تعالى

■■■

في إجازة الورثة للوصيَّة الزائدة عن ثلث التركة



■ **السؤال:**

1. توفيَت امرأةٌ وتركتْ أولادًا بنين وبنات وابنَ ابنٍ (أبوه ميّتٌ)، وأوصتْ بأنْ تُقسمَ تركتُها نصفين: نصفٌ يأخذه ابنُ الابنِ والنّصفُ الآخرُ يُتصدّق به، فهل تُنفّذ هذه الوصيّةُ إذا وافق عليها الورثةُ (البنون والبناتُ) أم أنّه لا عبرةَ بموافقتهم ويجب قسمةُ مالها قسمةً شرعيّةً؟ وما العملُ في حالة مخالفة أحدِ الورثة وعدم رضاه بالوصيّة ومطالبته بأخذ حقّه؟

2. هذه المرأةُ ورثت ابنَها الذي مات قبلها، ولكنْ هناك جزءٌ من مال ابنها لم تقبضْه، وهو عبارةٌ عن دين (لأنّ ابنَها أقرضَ بعضَ النّاس مالاً ولم يسدّدْ هؤلاء النّاسُ المالَ)، فهل هذا المالُ يدخل في وصيّتها المذكورة أم لا؟

■ **الجواب:**

فالوصيّةُ تجوز لغير الوارثِ إذا كان المالُ كثيرًا وفي حدود ثلث التّركة؛ لقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ»[1]، ولقوله ﷺ لسعد ابن أبي الوقّاص رضي الله عنه: «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ»[2]، ولقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ [البقرة: 180] الآية، والمرادُ بقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ أي أنْ يكونَ مالُ الموصي الذي تركه كثيرًا وافرًا، ويؤيّده قولُه ﷺ في حديث سعد بن أبي الوقّاص رضي الله عنه: «إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ».

هذا، وابنُ الابن ـ وإنْ كان غيرَ وارث لوجود مَن يحجُبه حَجْبَ حرمانٍ ـ إلاّ أنَّ الوصيّةَ زادتْ عن ثلث التّركة، وحالتئذ لا حقَّ للموصى له إذا خالف الموصي شروطَ صحّة الوصيّة إلاّ إذا أجازها الورثةُ البالغون الرّاشدون وتنازلوا عن حقّهم في الإرث جميعًا أو وهبوا له قدرًا يعيّنه الوارثُ بحسَبه، فإنّ الوصيّةَ تُنفَّذ في نصيب مَن أجازها له منَ الورثة دون مَن لم يُجزْها؛ لما رُوي عن النّبيّ ﷺ: «لاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ الوَرَثَةُ»[3]، والحديثُ وإن ضعّفه المحقّقون إلاّ أنّ ما عليه عامّةُ الفقهاء العملُ بمقتضاه، علمًا أنّ مالَ التّركة يشمَلُ المقبوضَ وغيرَ المقبوض، والعلمُ عند الله تعالى.

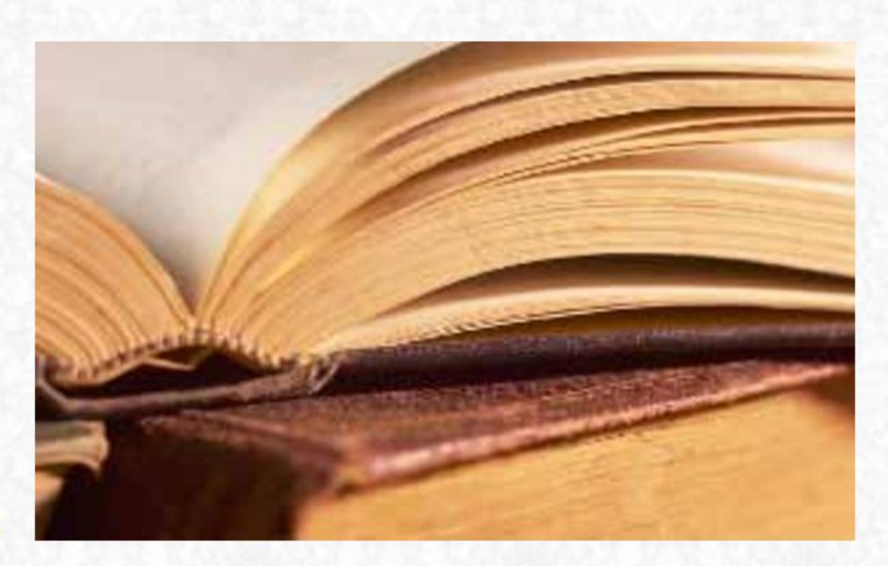
■■■

---

(1) أخرجه أبو داود (2780)، وابن ماجه (2713)، وأحمد (5/ 267)؛ من حديث أبي أمامة الباهليّ رضي الله عنه، وصحّحه الألبانيّ في «صحيح الجامع» (1788).

(2) متّفق عليه: أخرجه البخاريّ (2742)، ومسلم (1628)؛ من حديث سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه.

(3) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (349) من حديث عطاء الخراسانيّ عن ابن عبّاس، والطّبرانيّ في «مسند الشّاميّين» (2410) من حديث عطاء عن عكرمة عن ابن عبّاس، والدّارقطنيّ في «سننه» (4154) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه، الحديث حسّن إسناده ابن حجر في «بلوغ المرام» (3/ 227)، وقال في «الفتح» (5/ 372): «رجاله ثقات، لكنّه معلول»، وضعّفه الألبانيّ في «الإرواء» (6/ 96 ـ 97).



في حكم التوارث بين مَن جُهِلَ السابق من اللاحق منهم موتًا

■ **السؤال:**

مات على إثرِ حادثِ مرورٍ متوارِثانِ، ولم يُعْرَف أيُّهما سبق الآخَرَ موتًا، فكيف يتمّ توريثُهما؟

■ **الجواب:**

الصّحيحُ من قولَي العلماءِ أنّه لا توارُثَ بينهما، وإنّما يَرِثُ كلَّ واحدٍ منهما ورثتُه الأحياءُ، وهو مذهبُ جمهورِ العلماءِ خلافًا للحنابلة(4)، ويُلْحَقُ حكمُه بالحملِ الذي ولدتْه أمُّه ميّتًا، لأنّ منْ شرطِ الإرثِ تحقُّقَ حياةِ الوارثِ، وذلك غيرُ معلومٍ في هذه الحالِ، و«المجهولُ كالمعدوم» في الأصولِ، و«الشّكُّ يُنافي اليقينَ»، والإرثُ لا يَثْبتُ للمعدومِ ولا مع حصولِ الشّكِّ، ويؤيّده ما ثَبَتَ عن زيدِ بنِ ثابتٍ رضي الله عنه أنّه قال: «كلُّ قومٍ متوارِثونَ عَمِيَ موتُهم في هدمٍ أو غرقٍ فإنّهم لا يتوارثون، يَرِثُهمُ الأحياءُ»(5).

والعلمُ عندَ الله تعالى.

■■■

(4) انظر: «القوانين الفقهيّة» لابن جزيّ (379)، «مغني المحتاج» للشّربينيّ (3/ 26)، «تبيين الحقائق» للزّيلعيّ (6/ 241)، «المغني» لابن قدامة (6/ 308)، «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (31/ 356).

(5) أخرجه الدّارميّ في «سننه» (2/ 378)، قال الألبانيّ في «إرواء الغليل» (6/ 153): «وهذا إسناد حسن».

في صيغة الوقف المعلَّقة على الموت

■ **السؤال:**

قامت امرأةٌ بحبس ووقف قطعة أرضٍ على أولادها بعد وفاتها بالسويّة ذكورًا وإناثًا، ثمّ على فروعهم ما تناسلوا وتسلسلوا وامتدت فروعهم في الإسلام فإن انقرضوا ترجع القطعة حبسا على الفقراء والمساكين الموجودين بدار الصدقة بالجزائر.

فنرجو من فضيلتكم أن تبيّنوا حكم هذا الوقف؟ وجزاكم الله خيرا.

○○○

■ **الجواب:**

لا خلاف بين الفقهاء في أنّ منْ شرط صحّة الوقف أن يكونَ بالصّيغة المنجَّزة التي تدلّ على إنشاء الوقف وترتيب آثاره عليه في الحال.

أمّا صيغة الوقف المضافة إلى زمن مستقبل أو المعلّقة على أمرٍ مستقبلٍ كالموت كأنْ يقولَ الواقفُ: «وقفتُ أرضي على أولادي بعد موتي»، فلا يصحّ الوقف على مذهب الجمهور، خلافًا للمالكيّة الّذين يُجيزون الوقف مطلقًا سواء كان الوقف منجَّزًا أو مضافًا أو معلَّقًا.

والصّحيح أنّ الواقف إنْ علّق وَقْفَه على موته فهو بمنزلة الوصيّة بالمنافع وتُطَبَّقُ عليه أحكامُ الوصيّة، ذلك لأنّ في إضافة تصرُّف الواقف إلى ما بعد الموت بجَعْلِ المنافع مستحَقّة على موته هو معنى الوصيّة بالمنافع، والعبرةُ في العقود والتّصرّفات بالمقاصد والمعاني لا الألفاظ والمباني.

وبناءً عليه، فالورثةُ ينفّذون الوصية على أرضها إذا لم يَزِدْ على ثلث التّركة ويصرفونها إلى المساجد أو المصالح العامّة دون جهتهم لأنّه لا وصيّةَ لوارث.

فإنْ زاد عن الثّلث توقّف نفاذُه في الزّائد على إجازة الورثة، فإنْ أجازوا كانت الغلّة مصروفةً إلى الجهة المذكورة، وإن لم يُجيزوا كان الثّلث غلّةً لتلك الجهة والباقي للورثة: للذكر مثل حظ الأنثيين.

والعلم عند الله تعالى.

■■■

في التصرف في تركة الميت من غير إذن الورثة

■ **السؤال:**

امرأةٌ تصرفت في تركة أختها المتوفاة فأنفقتها في أنواع البرّ، ولم تخضعها لأحكام الميراث جهلاً، فما حكم هذا التصرُّف؟

○○○

■ **الجواب:**

إنَّ تصرُّف المرأةِ في تركة أختها من غير إذن الورثة وعلمهم حرامٌ لما فيه من الاعتداء على مال الوارث، ففي الحديث: «كُلُّ المسْلم عَلَى المسْلم حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»[6]، ولقوله ﷺ: «لاَ يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلمٍ إلاَّ بطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ»[7]، وعليه فإنَّ ذمتها مشغولة فيما أَنفقته بتصرفها غير المأذون فيه، وذلك فيما دون حقّها منه، ولا تبرأ ذمَّتُها منه إلاَّ بعد ردِّ كلِّ مال الورثة المستحقّين له، ما لم يصرِّح الورثةُ بالتنازل عليه، أو بإجازة تصرُّفها فيه.

هذا، والمعلوم أنَّ الجهل لا تأثير له على حقوق الناس وأموالهم، كما لا تأثير له في انتفاء الإثم عليها لوجودها في دار الإسلام حيث مظنة العلم؛ لأنَّ الشرع أَمَرَ بالعلم والتعلُّم وسؤال أهل الذِّكر، وبيَّنه لمن صلحت نيَّته وحسن منهاجه، قال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧﴾ [سُورَةُ الأَنبِيَاءِ]، وقال ﷺ: «أَلاَ سَأَلُوا إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا إِنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ ـ أي: الجهل ـ السُّؤَالُ»[8]، وقد وضع العلماء قاعدةً مقتضاها أنه: «لاَ يُقْبَلُ فِي دَارِ الإِسْلاَمِ عُذْرُ الجَهْلِ بِالحُكْمِ الشَّرْعِيِّ».

والعلمُ عند الله تعالى، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصَلَّى اللهُ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وإخوانِه إلى يوم الدِّين، وسَلَّم تسليمًا.

■■■

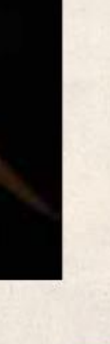
(6) أخرجه مسلم في «صحيحه» (6706)، وأبو داود في «سننه» (4884)، والترمذي في «سننه» (2052)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(7) أخرجه أحمد في «مسنده» (20695)، والدارقطني في «سننه» (300)، وأبو يعلى في «مسنده» (1537)، والبيهقي في «سننه» (11877)، من حديث حنيفة الرقاشي رضي الله عنه، والحديث صححه الألباني في «الإرواء» (5/ 279)، وفي «صحيح الجامع» (7539).

(8) أخرجه أبو داود (337)، وابن ماجه (572)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، والحديث حسّنه الألباني في «صحيح أبي داود» (1/ 101)، وفي «صحيح ابن ماجه» (1/ 178).

مناظرة ابن عبّاس رضي الله عنهما للخوارج... عِبَرٌ وعِظَاتٌ

فؤاد عطا الله
مرحلة الدكتوراه. وادي سوف



نصّ المناظرة

قال عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما: لما خرجت الحروريّة[1] اعتزلوا (اجتمعوا) في دار، (يخرجون على علي رضي الله عنه).

قال: جعل يأتيه الرّجل يقول: يا أمير المؤمنين القوم خارجون عليك، قال: دعهم حتى يخرجوا)[2]، وكانوا ستّة آلاف.

فقلت لعليّ: يا أمير المؤمنين أَبْرِد بالصّلاة (بالظّهر)[3]، (فلا تَفُتْنِي)[4]، لعلّي أكلّم هؤلاء القوم.

قال: إنّي أخافهم عليك.

قلت: كلّا.

فلبست (أحسن ما يكون من حُلَلِ اليمن)، وترجّلت، (قال أبو زُمَيل: وكان ابن عبّاس رجلا جميلا جهيرا)[5].

ودخلت عليهم في دار نصف النّهار، وهم يأكلون.

(قال: فدخلت على قوم لم أر قوما قطّ أشدّ اجتهادا منهم)[6]، (فإذا هم مُسْهِمَةٌ[7] وجوههم من السّهر، قد أثّر السّجود في جباههم، كأن أيديَهم ثَفِنُ[8] الإبل عليهم قُمُصٌ مرحَّضَة[9])[10].

فقالوا: مرحبا بك يا ابن عبّاس (فما

(1) الحروريّة: نسبة إلى حروراء، موضع قريب من الكوفة نزله الخوارج، فنسبوا إليه. انظر: «غريب الحديث» لابن الجوزي (1 / 210).
(2) من «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (1834).
(3) من «المستدرك» للحاكم (2656).
(4) من «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (1834).
(5) من «سنن أبي داود» (4037).
(6) من «مصنّف الإمام عبد الرزاق» (18678).
(7) مُسْهِمَةٌ: من السّهوم، وهو التغيّر بسواد وبياض. انظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (2 / 254).
(8) الثَّفِنُ: ما ولي الأرض من كلّ ذات أربع إذا بركت، كالركبتين وغيرهما، ويحصل فيهما غلظ من أثر البروك. انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير (1 / 215).
(9) المرحّضة: المغسولة. انظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (2 / 254).
(10) من «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البرّ (1834).

هذه الحلّة؟

قال: قلت: ما تعيبون عليّ؟ لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحُلَل، ونزلت: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 32][11].

قالوا: فما جاء بك؟

قلت لهم: أتيتكم من عند أصحاب النبيّ ﷺ المهاجرين والأنصار، ومن عند ابن عمّ النبي ﷺ وصهره، وعليهم نزل القرآن، فهم أعلم بتأويله منكم، وليس فيكم منهم أحد، لأبلغكم ما يقولون، وأبلغهم ما تقولون.

(فقال بعضهم: لا تخاصموا قريشا فإن الله تعالى يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ [سُورَةُ الزُّخْرُفِ].

فقال بعضهم: بلى فَلَنُكَلِّمَنّه.

قال: فكلّمني منهم رجلان أو ثلاثة)[12]، فانتحى لي نفر منهم.

قلت: هاتوا ما نقمتم على أصحاب رسول الله ﷺ وابن عمه.

قالوا: ثلاث.

قلت: ما هنّ؟

قال: أما إحداهنّ، فإنّه حكّم الرّجال في أمر الله، وقال الله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: 57] ما شأن الرّجال والحكم؟

قلت: هذه واحدة.

قالوا: وأما الثّانية، فإنه قاتل، ولم يَسْبِ، ولم يغنم، إن كانوا كفارا لقد حلّ سباهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حلّ سباهم ولا قتالهم.

قلت: هذه ثنتان، فما الثالثة؟

وذكر كلمة معناها قالوا: محى نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين، فهو أمير الكافرين.

قلت: هل عندكم شيء غير هذا؟

قالوا: حسبنا هذا.

قلت لهم: أرأيتكم إن قرأت عليكم من كتاب الله جل ثناؤه وسنّة نبيّه ما يردّ (ينقُض)[13] قولكم أترجعون؟

قالوا: نعم.

قلت: أما قولكم: حكّم الرجال في أمر الله، فإني أقرأ عليكم في كتاب الله أن قد صيّر الله حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم (في أرنب)، فأمر الله تبارك وتعالى أن يحكُموا فيه، أرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: 95]، وكان من حكم الله أنه صيره إلى الرجال يحكمون فيه، ولو شاء لحكم فيه، فجاز من حكم الرجال، أنشدكم بالله أحكم الرجال في صلاح ذات البين، وحقن دمائهم أفضل أو في أرنب؟

قالوا: بلى، هذا أفضل.

وقال في المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 35] فَنَشَدتكم بالله حُكمُ الرجال في صلاح ذات بينهم، وحقن دمائهم أفضل من حكمهم في بُضْع امرأة؟

قال: خرجت من هذه؟

قالوا: نعم.

قلت: وأما قولكم قَاتَل ولم يَسْبِ، ولم يَغنَم، أَفَتَسْبُون أُمَّكم عائشة؟ تستحلّون منها ما تستحلّون من غيرها، وهي أمّكم؟ فإن قلتم: إنا نستحلّ منها ما نستحلّ من غيرها؛ فقد كفرتم، وإن قلتم: ليست بأمّنا؛ فقد كفرتم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6] فأنتم بين ضلالتين، فأتوا منها بمخرج، أفخرجت من هذه؟

قالوا: نعم.

قال: وأمّا مَحْيُ نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بما ترضون. إن نبيّ الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين فقال لعليّ: «اكتب يا عليّ هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله ﷺ: «امحُ يا علي، اللهم إنّك تعلم أني رسول الله، امحُ يا عليّ، واكتب هذا ما صالح عليه محمّد بنُ عبد الله»، والله لرسول الله ﷺ خيرٌ من عليٍّ، وقد محى نفسه، ولم يكن محوُه نفسَه ذلك محاه من النبوّة، أخَرَجتُ من هذه؟ قالوا: نعم.

قال عبد الله بن عباس: فرجع منهم ألفان، وخرج سائرهم، فقتلوا على ضلالتهم، فقتلهم المهاجرون والأنصار.

■■■

(11) من «المستدرك» للحاكم (2656).

(12) من «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (1834).

(13) من «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (1834).

تخريج الأثر

أخرجه عبد الرَّزَّاق في «المُصنَّف» (18678).

والنَّسائي في «الكبرى» (8522) واللَّفظ له.

والحاكم في «المُستَدرَك على الصَّحيحَيْن» (2656).

والبيهقي (16740).

وابنُ عبد البرِّ في «جامع بيان العلم وفضله» (1834).

وأخرج بعضَه جمعٌ من الأئمَّة والحُفَّاظ منهم: الإمام أحمد في «مُسنَده» (3187)، وأبو داود في «سُنَنِه» (4037)، وضياء الدِّين المقدسي في «الأحاديث المختارة» (433).

من طرق عن عكرمة بن عمَّار، عن أبي زميل الحنفي، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

والحديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه في «الصَّحيحين» كما قال الحاكم في «المُستَدرَك»، ووافقه الذَّهبي، وقال الهيثمي في «مجمع الزَّوائد» (10450): «رواه الطَّبراني، وأحمد ببعضِه، ورجالهما رجالُ الصَّحيح».

وصحَّح إسنادَه العلاَّمة أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (3187)، وحسَّنه الشيخ الألباني في: «صحيح سنن أبي داود» (3406).

■■■

ما يستفاد من القصَّة

يُستفادُ من هذه القصَّة حِكَمٌ جليلةٌ، وعظاتٌ بليغةٌ، إلاَّ أنَّ ضِيق المقام؛ والرغبة عن الإطالة والإسهاب ألجأت إلى الاقتصار على ذكر ما له صلة بالخوارج وصفاتهم وشبهاتهم، دون التعريج على الفوائد الحديثيّة، والقواعد الأصوليّة، والأحكام الفقهيّة، وهي كثيرة مبثوثة في ثنايا هذه الموعظة البليغة.

ومما يستفاد من مناظرة ابن عبَاس رضي الله عنهما للخوارج ما يأتي:

الأولى: قوله: «لما خرجت الحروريّة اعتزلوا (اجتمعوا) في دار».

1 ـ فيه أن أوّل بدعة حدثت في الإسلام هي بدعة الخوارج، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله (ت 728هـ): «وأول بدعة حدثت في الإسلام بدعة الخوارج والشيعة، حدَّثتا في أثناء خلافة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب فعاقب الطائفتين، أما الخوارج فقاتلوه؛ فقتلهم، وأما الشيعة فحرّق غاليتهم بالنار، وطلب قتل عبد الله بن سبأ، فهرب منه، وأمر بجلد من يُفضّله على أبي بكر وعمر»[14].

2 ـ وفيه أن الخوارج هم أوّل من فارق جماعة المسلمين من أهل البدع، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله: «ولهذا كان أوّل من فارق جماعة المسلمين من أهل البدع الخوارج المارقون»[15].

3 ـ وفيه أن من صفات الخوارج اجتماع بعضهم مع بعض، وتفريقهم لجماعة المسلمين، وهذه من صفاتهم التي اشتركوا فيها قديما وحديثا. ولهذا دعا منظّرو الخوارج في العصر الحديث إلى العزلة الشّعورية، وأرشدوا أتباعهم إلى اعتزال المجتمعات المسلمة المعاصرة، وحكموا عليها بالجاهليّة.

4 ـ وفيه أن الخوارج يكفّرون من

(14) «مجموع الفتاوى» (3/ 279).
(15) «مجموع الفتاوى» (3/ 349).



خالفهـم ويسـتحلّون دماءهـم وأموالهم، قـال شـيخ الإسـلام ابـن تيميّـة رحمه الله: «فالخـوارج لما فارقـوا جماعة المسـلمين وكفّروهـم واسـتحلّوا قتالهـم جـاءت السـنّة بما جـاء فيهـم»[16]، وقال أيضًـا: «والخـوارج هـم أوّل مـن كفّر المسلمين، يكفّـرون بالذنوب، ويكفّـرون من خالفهم في بدعتهم، ويسـتحلّون دمه وماله، وهذه حـال أهل البدع يبتدعـون بدعة ويكفّرون من خالفهم فيها، وأهل السـنّة والجماعة يتّبعـون الكتـاب والسـنّة، ويطيعـون الله ورسوله، فيتّبعون الحق ويرحمون الخلق».

5 - وفيـه أن مـن صـفات الخـوارج اتّسـام أعمالهم بالسّـرية، والاجتماعات المغلقة الخاصـة، والانعزال عن المسلمين، فإنهم إذا اجتمعوا على ضلالتهم، أسرُّوا رأيهـم أوّل الأمـر، ولا يظهرونـه إلا إذا استشـعروا شـيئًا من القوة والمنَعَة. ولهذا أسّـس بعض فرق الخـوارج المعاصـرين تنظيمـات سـرية خاصّـة، وأسـندوا لها مهامـا عسـكريّة، تتمثّـل في التفجيـر والتدمير، وتنفيذ الاغتيالات السياسـيّة، والتصـفيات الجسـديّة لخصـومهم من الحكّام والقضـاة والمسؤولين العسكريين، فتنبّه - أيها الموفق - لهذا، فإنه مهمّ.

○○○

الثّانيـة: قولـه: «يخرجـون على علي رضي الله عنه».

فيـه أنَّ مـن أبـرز صـفات الخـوارج الخـروج علـى ولاة الأمـور، ولـو كان وليّ الأمر من كان؛ صـلاحا وعدلا وسـبقا في الإسلام ونصرةً للدين، فهذا عليّ بن أبي طالـب رضي الله عنه، ابـنُ عمّ رسـول الله ﷺ، وصـهرُه، ورابعُ الخلفاء الرّاشدين، وأحد المبشّـرين بالجنّة، ولم يرضـوا بسـيرته، وحكمـه، فكيـف يرضـون بمن هـم دونه بمراتب؟

○○○

الثالثـة: قولـه: «جعـل يأتيـه الرجل يقول: يـا أميـر المؤمنين القـوم خارجون عليك، قال: دعهم حتى يخرجوا».

1 - فيـه فقه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسـعة علمه، وشـدّة معرفته بالخوارج وصـفاتهم، فقد كان رضي الله عنه يعلم أن الضّلالة التي انعزلوا بها، وفارقوا بها جماعة المسلمين، ستؤول بهم إلى مباشرة الخروج بالسيف لا محالة.

2 - وفيه وجوب نُصـح ولاة الأمور عند بـروز الفـتن، وتحذيرهم من أهـل البدع والأهواء وخاصّـة بدعـة الخوارج، فانظر - أيهـا الموفّـق - كيف كان الصّـحابة رضي الله عنهم يتعاهـدون وليّ الأمـر بالنّصـح والبيان، والتحذيـر مـن شـرّ الخـوارج بمجـرّد ظهورهم.

3 - وفيـه أن الخـوارج لا يُقاتلون حتى يَبـدَؤوا هـم بالقتـال، قـال الحافظ ابن حجـر رحمه الله: «وفيـه الكـفّ عـن قتـل من يعتقـد الخروج على الإمام ما لم ينصـب لذلـك حربـا أو يسـتعدّ لذلـك؛ لقولـه: «فإذا خرجـوا فاقتلوهم»، وحكى الطّبري الإجمـاع علـى ذلـك في حقّ مـن لا يكفر باعتقـاده»[17]، وقد أورد الإمـام البيهقيّ رحمه الله مناظـرة ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب قتال أهل البغـي في باب «لا يبدأ الخوارج بالقتال حتى يسـألوا ما نقموا ، ثم يؤمروا بالعود ، ثم يؤذنوا بالحرب».

○○○

الرابعـة: قوله: «فقلـت لعلي: يا أمير المؤمنـين أبـرد بالصـلاة بالظهـر، فـلا تفتني».

1 - فيـه أن الخـوارج هجـروا الجُمـعَ والجماعات، فكانوا لا يصـلّون مع جماعة المسلمين التـي يؤمّها أمـير المؤمنين عليّ ابـن أبـي طالـب رضي الله عنه، وإنمـا اتّخـذوا لأنفسـهم جماعـة أخرى في مـكان آخر، يصلّون فيه وحدهم دون جماعة المسلمين، وهجر الجمع والجماعات من أبرز صفات الخـوارج قديمـا وحديثـا، حتـى إن أحد منظّريهـم المعاصـرين كان لا يصـلي الجمعة مـع المسـلمين؛ لأنه يرى سـقوط وجوبهـا؛ لعـدم وجـود الإمـام وسـقوط الخلافـة الإسـلاميّة - بزعمـه -، وأرشـد أتباعـه إلى اعتـزال المسـاجد، وسـمّاها معابـد الجاهليّـة، ونصـح بالصـلاة في البيـوت، فهجـروا جماعـات المسـلمين ومسـاجدهم، كما فعل أسلافهم الأوائل، ولكل قوم وارث.

2 - وفيـه منـاداة ولاة الأمـور بألقاب التكريم، ومخاطبتهم بما يسـتحقونه من الأدب والاحترام والتوقير.

○○○

الخامسـة: قولـه: «لعلّي أكلـم هؤلاء القوم».

1 - فيه وجوب تصدّي العلماء وخواصّ طلبة العلم لشـبهات أهل البدع والأهواء، ونقضها وتفنيدها، وبيان تهافتها بالحجّة والعلـم، إذ لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة.

2 - وفيــه استشـارة وليّ الأمـر عنـد التصـدّي لمناظـرة الخـوارج، والقـدوم عليهم.

3 - وفيـه أنه لا يجوز قتال الخوارج إلا

---

(16) «مجموع الفتاوى» (3 / 350).

(17) «فتح الباري» (12 / 299).

بعد مناصحتهم، وإقامة الحجّة عليهم: قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «لا يجوز قتال الخوارج وقتلهم إلا بعد إقامة الحجّة عليهم بدعائهم إلى الرجوع إلى الحقّ، والإعذار إليهم»[18].

ooo

السادسة: قوله: «قال: إني أخافهم عليك».

1 ـ فيه شفقة الخليفة الرّاشد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على الرعيّة.

2 ـ وفيه فقه أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه وسعة علمه، وشدّة معرفته بالخوارج وصفاتهم، وأنهم أهل غدر وخيانة، لا يُستأمنون على المسلمين، ويستحلّون دماءهم، ويقتلون رسل الأمراء والحكّام، وقد قتل الخوارج اليوم سفراء كثير من الدول الإسلامية، وفجّروا السّفارات والممثّليّات، وهذا من ذاك.

ooo

السابعة: قوله: «فدخلت على قوم لم أر قوما قطّ أشدّ اجتهادا منهم...».

1 ـ فيه صفة من صفات الخوارج الأوائل وهي شدّة اجتهادهم في العبادة، ووجوب التحذير من الاغترار بصلاتهم وعبادتهم، وطول قيامهم وسجودهم، ما دامت أفكارهم منحرفة عن الكتاب والسنة وفهوم سلف الأمّة.

2 ـ وفيه علامة من علامات النبوّة، فقد أخبر النبيّ ﷺ بكثرة صلاتهم، وقراءتهم للقرآن دون تفهّم، فوقع الأمر كما أخبر به ﷺ.

ooo

(18) «فتح الباري» (12 / 299).

الثامنة: قوله: «فقالوا: مرحبا بك يا ابن عبّاس فما هذه الحلّة؟».

فيه التنبيه على شدّة سَفَه الخوارج، وقلّة فقههم للدين، إذ جمعوا بين تحريم المباحات والطيّبات، واستباحة الدّماء ومواقعة الموبقات.

ooo

التاسعة: قوله: «لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحُلل».

فيه شدّة اقتداء الصحابة رضي الله عنهم بهدي النَّبيّ ﷺ في الظاهر والباطن، حتى في اللباس والحلل والزينة.

ooo

العاشر: قوله: «أتيتكم من عند أصحاب النبيّ ﷺ ..».

1 ـ فيه التنبيه على سبب تضليل الخوارج، والحكم بانحرافهم عن الصّراط المستقيم، ودخولهم في الفرق الثّنتين والسّبعين المتوعَّدَة بالنار، المخالفة للفرقة الناجية؛ والسبب هو مفارقة الخوارج لجماعة المسلمين، وانعزالهم عنها، وتميّزهم عنها بفرقة، وبيعة، وعقيدة مخالفة لمعتقد أهل السنة والجماعة، فإنه من فارق الجماعة، وانخزل عن المسلمين، وتميّز عنهم باسم أو رسم أو بيعة أو أمير أو ولاء أو عقيدة مغايرة لعقيدة النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم؛ كان من الفرق المخالفة للجماعة، المتناثرة على جنبتي الصراط المستقيم.

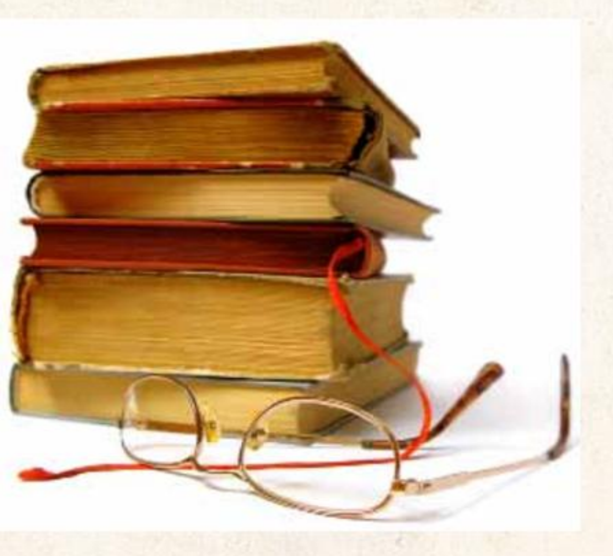
وقد أسهب الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله في بيان أسباب خروج الفرق الضّالة عن جماعة المسلمين، في كتابه المعطار: «حكم الانتماء للفرق والجماعات الإسلامية» (ص62)، وقرّر أنه «إذا انخزل فرد من المسلمين، أو انخزلت فرقة عنهم، فهذا انشقاق عن المسلمين وتفريق لجماعتهم، وهو في طبيعة حاله انخزال عن كلّ الإسلام على منهاج النبوّة، وعكسٌ لما أوصى به النّبيّ ﷺ من اعتزال الفرق كلّها، ولزوم جماعة المسلمين، فهذا اعتزل جماعة المسلمين، والتزم بالفرقة المفارقة لهم باسم أو رسم»، وحكم الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله (ص10) بأن: «هذه الأحزاب والجماعات الإسلامية القائمة في عصرنا مرفوضة سندا، ومتنا، وأنها امتداد للفرق والطّوائف التي انشقّت عن جماعة المسلمين بعد عصر الخلافة الرّاشدة، وإن اختلفت في اللّقب والشّعار، وشيء من التخطيط والمنهج»[19].

2 ـ وفيه فضل الصحابة رضي الله عنهم، وفضل المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، وفضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفضل مصاهرته للنبيّ ﷺ.

ooo

الحادية عشر: قوله: «وعليهم نزل

(19) المصدر السابق (ص10).



القرآن، فهم أعلم بتأويله منكم، وليس فيكم منهم أحد».

1 ـ فيه ضرورة تذكير المخالفين بفضائل الصّحابة ﷺ، وتحذيرهم من مغبّة مخالفتهم.

2 ـ وفيه أنه ليس أحدٌ أعلمَ من الصّحابة رضي الله تبارك وتعالى عنهم أجمعين، وما ذاك إلا لما منّ الله به عليهم من شرف الصّحبة، فشاهدوا التنزيل، وعرفوا التأويل.

3 ـ وفيه أن من علامات الخذلان أن يخالف المرء الصحابة ﷺ، وينعزل عنهم، وينأى بنفسه عنهم، وعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بتأويله.

4 ـ وفيه التنبيه على شدّة جهل الخوارج، وقلّة فقههم للدين، إذ دفعهم السّفه إلى مخالفة الصّحابة ﷺ، وهم بين ظهرانيهم.

5 ـ وفيه مغبّة الابتعاد عن العلماء الموثوقين، وعدم الارتباط بتوجيهاتهم ونصائحهم.

6 ـ وفيه التنبيه على شدّة جهل الخوارج، وشدّة سفههم، وأنّ صفوفهم خالية من العلماء، أما الخوارج الأوائل فلم يكن بينهم أحد من الصحابة ﷺ، وأما خوارج العصر فليس في صفوفهم عالم ربّاني متّبع لمذهب السّلف، بل إنّك لا تجد عالما من علماء الأمة الراسخين إلا وهو يضلّلهم، ويحذّر النّاس من مغبَّة اتباعهم، والاغترار بكلامهم وشعاراتهم الزائفة.

7 ـ وفيه التنبيه على خفّة عقول الخوارج، وطيشهم، وعدم عنايتهم بالعلم، وضعف شبهاتهم وتهافتها، ووهنها كوهن بيت العنكبوت، إذ كيف يخرجون على الصّحابة ﷺ؟ وهم أعلم الخلق آنذاك، وليس في الخوارج من يساوي شعرة في صدر واحد من أولئك الأخيار ﷺ.

ooo

الثانية عشر: قوله: «لأبلغكم ما يقولون، وأبلغهم ما تقولون».

1 ـ فيه سماع حجّة المخالف وعرضها على العلماء.

2 ـ وفيه التنبيه على ضرورة تبليغ العلم إلى المخالفين إقامة للحجّة، وإبراء للذمّة.

ooo

الثالثة عشر: قوله: «فقال بعضهم: لا تخاصموا قريشا...».

1 ـ فيه أنَّ من مسالك الخوارج قطع طريق الهداية بين أهل العلم وبين المغرّر بهم من أتباعهم، وهذه وسيلة من وسائلهم الخبيثة، والتي ما زال الخوارج في العصر الحديث يستعملونها، فيبدؤون أوّل ما يبدؤون بالطعن في العلماء، ووصفهم بالإرجاء والخيانة والجبن والعمالة، وعدم فقه الواقع، وما إليه من التعييرات التي حفظوها من أسلافهم، حتى إذا سقط أولئك العلماء من أعين الشباب، وتمكّنوا من إغارة صدور الشباب عليهم، سهل بعد ذلك على الخوارج أن يحشوا أدمغة المغرّر بهم من كل ما هو نتن وخبيث من أفكارهم المسمومة.

2 ـ وفيه أنَّ الخوارج يخشون مواجهة العلماء؛ لتيقّنهم بأنَّ العلم والحجة والدليل مع العلماء، لا معهم، ولو ناظروا العلماء لفضحوهم على رؤوس الأشهاد.

3 ـ وفيه جرأة الخوارج، وقلّة أدبهم، وفظاظتهم وبذاءتهم في مخاطبة حبر الأمة وترجمان القرآن وابن عمّ رسول الله ﷺ عبد الله بن عباس ﷺ، وهذه هي أخلاقهم مع أهل العلم قديما وحديثا.

ooo

الرابعة عشر: قوله: «فقال بعضهم: بلى فلنكلمنّه...».

فيه التنبيه على أن الخوارج ليسوا في دركة واحدة من الضّلال والانحراف، فمنهم من أُشْرِبَ قلبه البدعة، ولم يعد قادرا على سماع الذكر والعلم، ومنهم المغرّر بهم، الذين تنفعهم الموعظة والنصيحة، ولذلك رجع هؤلاء الذين أصغوا لابن عباس ﷺ، وانتفعوا بعلمه، بينما هلك أولئك الذين أعرضوا عنه، وقتلهم المهاجرون والأنصار في موقعة النّهروان.

ooo

الخامسة عشر: قوله: «قلت: هاتوا ما نقمتم على أصحاب رسول الله ﷺ وابن عمّه».

1 ـ فيه أنَّ من صفات الخوارج قلّة الورع عن الخروج على ولاة الأمور، ومفارقة الجماعة، فقد خرج أوائلهم على جماعة المسلمين، وهم الصحابة ﷺ، وإمامهم ابن عم رسول الله ﷺ.

2 ـ وفيه صفة من صفات الخوارج، وهي الإنكار على ولاة الأمور جهرا، وقد أمر النبي ﷺ بإسرار الإنكار على الحكام، وأمر بتعاهدهم بالنّصح سرا، ونهى عن ذكر مثالبهم، والتشهير بعيوبهم وأخطائهم، وقد ورث خوارج العصر هذه الصفة من أسلافهم، فتراهم يسبّون الحكام على المنابر وفي القنوات

في الصُّحف والإذاعات، ويدعون إلى المظاهرات والاعتصامات والإضرابات والثورات، ولا يراعون ضوابط التعامل مع الحاكم في الإسلام[20].

3 ـ وفيه أنَّ على العالم أن يحاور الخوارج، وأن يسألهم ماذا نقموا على المسلمين وجماعتهم، وأن يأتي على جميع شبهاتهم بالنّقض والتفنيد.

4 ـ وفيه صفة من صفات أهل الحقّ وهي المجادلة بالتي هي أحسن، ومناظرة المخالفين بالأدلّة الصّحيحة من الكتاب والسنة.

ooo

السادسة عشر: قوله: «قال: أما إحداهن، فإنه حكّم الرجال في أمر الله...».

1 ـ فيه أن الخوارج قديما وحديثا يتعمّدون لَبْسَ الحقّ بالباطل، فيستدلّون بآية التحكيم، وهي كلمة حقّ أريد بها باطل، وهو الدّليل نفسه الذي يستدلّ به خوارج العصر، ويسمّونها الحَاكِمِيَّة، وقد بيّن العلماء الربّانيّون صور الحكم بغير ما أنزل الله تبارك وتعالى، وفرّقوا بين ما يكون منها كفرا أكبر، وبين ما هو من الكفر الأصغر، وقرّروا أن الحكم بغير ما أنزل الله ليس كفرا على الإطلاق، وأن آية التحكيم ليست على ظاهرها، وشرحوا هذه المسألة بما لا مزيد عليه، فارجع إلى كلام العلماء في هذه القضيّة تسلم وتغنم، قال الإمام أبو المظفّر السّمعاني رحمه الله (ت:489هـ): «واعلم أن الخوارج يستدلّون بهذه الآية، ويقولون: من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر، وأهل السنّة قالوا: لا يكفر بترك الحكم»[21].

2 ـ وفيه صفة من صفات الخوارج وهي توجيه التّهم الباطلة لأهل الحقّ، والافتراء عليهم.

3 ـ وفيه أن جميع شبه الخوارج مبنيّة على استدلالات باطلة، تنمّ عن جهلهم بنصوص الكتاب والسنّة، ومعاندتهم لفهوم الصّحابة رضي الله عنهم.

4 ـ وفيه صفة من صفات الخوارج وهي التسرّع في إصدار الأحكام، دون نظر واجتهاد مؤسّس على قواعد الشّرع المطهّر، فهم أجهل من أن يقرّروا مسائل العلم على طريقة العلماء، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله: «وأقوال الخوارج إنّما عرفناها من نقل النّاس عنهم؛ لم نقف لهم على كتاب مصنّف»[22].

ooo

السابعة عشر: قوله: «قالوا: وأما الثانية، فإنه قاتل، ولم يسبِ، ولم يغنم...».

1 ـ فيه صفة من صفات الخوارج وهي التعلّق بالغنائم والأموال والسّبي، وليس هذا مستغربا فقد اعترض رأس الخوارج ذو الخُوَيْصِرَة التميمي على قسمة النبيّ ﷺ للغنائم.

2 ـ وفيه صفة من صفات الخوارج وهي اعتمادهم على فهومهم القاصرة، وعدم الرجوع في فهم النصوص الشّرعية إلى الصّحابة رضي الله عنهم، الذين شهدوا التنزيل، وعرفوا التأويل.

3 ـ وفيه أنَّ الخوارج يستحلّون اغتصاب نساء أهل القبلة، بدعوى أنهنّ سبايا، وهذا شائع معروف في جرائم خوارج العصر، وحصل في كثير من البلدان الإسلاميّة.

4 ـ وفيه أنَّ الخوارج يستحلّون أموال أهل القبلة بدعوى أنّها غنائم.

ooo

الثامنة عشر: قوله: «قالوا: محى نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين، فهو أمير الكافرين».

فيه فساد منهج الاستدلال عند الخوارج، واعتمادهم على الإلزامات الباطلة، والأقيسة الفاسدة.

ooo

التاسعة عشر: قوله: «قلت: هل عندكم شيء غير هذا؟ قالوا: حسبنا هذا».

فيه تلطّف العالم مع المخالفين من أهل البدع والأهواء أثناء المناظرة، وتدرّجه في مناقشة شبههم شبهة شبهة، واستفصاله عمّا يرونه مشكلا وملتبسا من مسائل العلم، حتى يفارقهم، ولا يُبْقِي شبهةً إلا وقد أتى على نقضها وتفنيدها.

ooo

العشرون: قوله: «قلت لهم: أرأيتَكُم إن قرأتُ عليكم من كتاب الله جلّ ثناؤه وسنة نبيه ما يردّ (ينقُضُ) قولكم أترجعون؟».

1 ـ فيه أنَّ الكتاب والسنة هما مصدر التشريع الأساسي، وهما حجّة على جميع المسلمين.

2 ـ وفيه تفنيد شبهات المخالفين بنصوص الكتاب والسنة إن وجد فيهما.

(20) راجع في موضوع ضوابط التعامل مع الحكام كتاب: «ضوابط معاملة الحكام في الكتاب والسنة»، للشيخ عبد السلام بن برجس العبد الكريم رحمه الله، فقد أجاد وأفاد.

(21) «تفسير السمعاني» (2/ 42).

(22) «مجموع الفتاوى» (13 / 49).

3 ـ وفيـه أن مسـائل العلـم تُبنى على النّظر في جميع نصوص الباب من الكتاب والسـنة، وأمـا الخـوارج فإنهـم يأخذون ببعض ذلك ويتركـون بعضَـه، وهذا من أسباب اختلال منهج الاستدلال عندهم.

ooo

الحاديـة والعشرون: قوله: «قلت: أما قولكم: حكم الرجال في أمر الله...».

1 ـ فيـه أن نصـوص الكتاب والسـنّة محكمة لا تتعارض.

2 ـ وفيـه صـفة من صـفات الخوارج وهي قصـر نظرهم، وعـدم قدرتهم على الموازنة بين المصـالح والمفاسد، وما ذاك إلا بسبب بعدهم عن منهج السلف في فهم النّصوص الشرعية.

3 ـ وفيـه فضـل إصـلاح ذات البـين وحقن الدّماء.

4 ـ وفيـه تقريـر العـالم للمخالـف له من أهـل الباطل بزوال شـبهته، وانقطاع حجته.

5 ـ وفيـه أن المغـرّر بهـم من الخوارج قد ينصـفون، ويعترفون بقـوة حجّة أهل الحق.

ooo

الثانيـة والعشـرون: قولـه: «وأمـا قولكم: قاتل ولم يَسْبِ، ولم يغنم...».

1 ـ فيه فضل عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

2 ـ وفيـه تناقـض الخـوارج، وإلـزام العالم لهـم باختيار أحد القولين، كلاهما باطل بإقرارهم.

ooo

الثالثة والعشرون: قوله: «وأما مَحْيُ نفسه من أمير المؤمنين...».

فيه التمسّـك بسـنّة النبيّ ﷺ وهديه في التعامل مع المخالفين والمبطلين.

ooo

الرابعـة والعشـرون: قولـه: «فرجـع منهم ألفان، وخرج سـائرهم، فقتلوا على ضلالتهم، فقتلهم المهاجرون والأنصار».

1 ـ فيه بركـة العلم، وفضـل العلماء، ودورهم في ردّ الناس إلى جادة الصّـراط المستقيم والنّهج القويم.

2 ـ وفيـه ضـرورة التحصّـن بالعلـم الشرعي في مواجهة أهل البدع والأهواء.

3 ـ وفيه أن كثـيرا من الذين يعتنقون فكر الخـوارج قديمـا وحديثا مـن المغرّر بهم.

4 ـ وفيـه إعطـاء الأمان لمـن رجع من الخـوارج، وكَفُّ يـدَه عن دماء المسـلمين وأعراضهم.

5 ـ وفيـه دليـل على ضـلال الخوارج وسـوء عاقبتهـم في الدنيـا والآخـرة، وذلـك أنهم قُتِلـوا على أيـدي المهاجرين والأنصـار، ولم يختلـف الصـحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في قتالهم، قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عن الخوارج: «وقد قاتلهم أصـحاب النبـي ﷺ مع أمير المؤمنـين علي بن أبي طالب، فلم يختلفوا في قتالهم كما اختلفوا في قتال الفتنة يوم الجمل وصفّين...»[23].

6 ـ وفيـه علامة من علامـات النبوّة، وهي أنَّ الخوارج يُقَتّلون، وأنهم شـرّ قتلى تحت أديم السّماء، وأنَّهم كلما خرج منهم قرن قُطِع ـ قطع الله أدبارهم ـ.

7 ـ وفيـه التحذيـر مـن الخـوارج، وإعـلام النّـاس بضـلالهم وانحرافهم، وسـرد الآثار الصّـحيحة والمواعظ البليغة في التحذير منهم ومن شرّهم.

8 ـ وفيه فضـل الرجوع إلى الحقّ عند ظهوره.

9 ـ وفيـه مغبّـة الإعراض عن الحقّ، وأنه سـبب مـن أسـباب الزّيـغ والهلاك في الدنيـا والآخـرة، قال شـيخ الإسـلام ابـن تيميّـة رَحِمَهُ اللهُ: «وكذلـك مـن أعرض عـن اتّباع الحـقّ الـذي يعلمُه تبعـا لهواه فـإن ذلـك يورثه الجهـلَ والضـلالَ حتى يَعمَـى قلبُه عـن الحقّ الواضـح، كما قال تعـالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥﴾ [سُورَةُ الصَّفِّ]، وقال تعـالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البَقَرَة: 10]»[24].

10 ـ وفيـه أنَّ الارتباط بأئمة السـلف من الصّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ومن جاء بعدهم ممن تبعهم بإحسان عصمةٌ من الزيغ والزلل.

11 ـ وفيـه جـواز قتـال ولاة الأمـور للخوارج، وقتلهم، بعد مناظرتهم، ونقض شبهاتهم.

وفي الختام:

أسـأل الله تبـارك وتعـالى أن يجنّبنا الفتن مـا ظهر منها وما بطن، وأن يؤمّننا في أوطاننـا، وأن يصـلح أئمّتنـا وولاة أمورنـا، وأن يهدينا جميعا إلى التمسّـك بمـا كان عليـه سـلف الأمّة، وصـلى الله وسـلم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه أجمعين.

■■■

(23) «مجموع الفتاوى» (3 / 349).

(24) «مجموع الفتاوى» (10 / 10).



الكلام على حديث: «حُبِّب إليَّ مِن دنياكم النِّساء والطيب ...»

لكمال الدِّين محمَّد بن محمَّد بن أبي شريف المقدسي الشَّافعي (ت 906 هـ)



قرأه وعلَّق عليه: د. رضا بوشامة
أستاذ الحديث في جامعة الجزائر



هذا شرح لطيف لحديث: «حُبِّب إليَّ من الدُّنيا النِّساءُ والطِّيبُ ...»، سُئل عنه الكمال بن أبي شريف فأزال عنه اللَّبسَ الَّذي يقع لبعضهم في فهم معناه، وتكلَّم عن لفظة يسوقُها بعض المصنِّفين في كتبهم ويُدرجونها في الحديث وليست من مبناه، وبدونها لا يُشكل الحديث، وبإيرادها يقع الإشكال، وقد أنكرها كثيرٌ من المحدِّثين وذكروا أنَّها مُفسدةٌ للمعنى، ومَشى المؤلِّف على إنكار وجودها في الحديث، إلاَّ أنَّه ذكر لها تخريجًا لو صحَّت وثبتت، وتكلَّم عمَّا ورد في الحديث ممَّا حُبِّب للنَّبيِّ ﷺ وهما: النِّساء والطِّيب، وسُكت عن الثَّالث، وهل لنا أن نجتهد في تحديده أم لا، إلى غير ذلك من الفوائد الَّتي يجدها القارئ في هذه الورقات المتعلِّقة بالحديث.

◎ **ومصنِّف هذه الرُّقعة** هو كمَال الدِّين أبو المَعَالي مُحَمَّد بن الأَمير نَاصر الدِّين مُحَمَّد بن أبي بكر بن عَليّ بن أبي شريف المَقدِسي الشَّافِعي، مولده سنة (828 هـ) بمدينة القدس، ونشأ بها وحفظ القُرآن العظيم والشَّاطبيَّة والمنهاج للنَّووي سنة (839 هـ)، ثمَّ حفظ ألفيَّة ابن مالك وألفيَّة الحديث وقرأ القرآن بالرِّوايات، وقرأ في العربيَّة وأصول الفقه والمنطق وغير ذلك، ورحل إلى القاهرة سنة (844 هـ)، وأخذ عن الحافظ ابن حجر، وكتب له إجازة ووصفه بالفاضل البارع الأوحد، وقال: «شارك في المباحث الدَّالَّة على الاستعداد، وتأهَّل لأن يُفْتي بما يعلمُه ويتحقَّقُه من مذهب الإمام الشَّافعي من أراد، ويفيد العلوم الحديثية من المَتن والإسناد، علمًا بأهليَّته لذلك، وتلوُّحه في مضائق تلك المسالك».

ذكره البقاعي ووصفه بالذِّهن الثَّاقب والحافظة الضَّابطة والقريحة الوقَّادة والفكر القويم والنَّظر المُستقيم وسرعة الفهم وكمال المُروءة، مع عقل وافر وأدبٍ ظاهر وخفَّة روح ومجد على سمته يلوح وأنَّه شديد الانقباض عن النَّاس غير أصحابه».

له عدَّة مصنَّفات في علوم متعدِّدة، «الإسعاد شرح الإرشاد» في الفقه، و«الدُّرر اللَّوامع بتحرير جمع الجوامع» في الأصول، و«حاشية على نخبة الفكر» لشيخه ابن حجر، وتوفِّ سنة (906).

ترجم له ترجمة مطوَّلة تلميذه عبد الرَّحمن بن محمَّد العليمي الحنبلي في آخر كتابه «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» (2 / 377)[1].

◎ **وأمَّا الرُّقعة المحقَّقة في هذه المجلَّة** فقد أوقفني عليها أخونا الباحث عمَّار تمالت، وهي من محفوظات مكتبة الدَّولة في برلين بألمانيا برقم (236 pm)، وهي ضمن مجموع من (16 أ. 17 أ)، وهي مكتوبة في حياة المصنِّف سنة (877 هـ) بخطِّ تلميذه، في المسجد الحرام كما هو مثبت في الرِّسالة قبل هذه، ولم يذكر لها عنوانًا، وإنَّما بدأها بما سيأتي ذكره.

■■■

(1) وانظر أيضًا: «نظم العقيان في أعيان الأعيان» (ص159) للسُّيوطي، «النُّور السَّافر عن أخبار القرن العاشر» (1 / 41) للعيدروس، «الكواكب السَّائرة بأعيان المئة العاشرة» (1 / 9) للغزي.

صورة المخطوط

النصُّ المحقَّق

وسأله ﷺ كاتبُه عن حديث: «حُبِّب إليَّ من دُنياكم ثلاث...».

مَن خرَّجه؟ وهل الصَّلاة هي الثَّالثة أم لا؟ وما معناه؟

ooo

فكتب:

الحمد لله، الجواب وبالله التَّوفيق:

هذا الحديث أخرجه النَّسائي بلفظ: «حُبِّب إليَّ من الدُّنيا النِّساء والطِّيب، وجُعلت قُرَّة عيني في الصَّلاة»[2].

وكذلك أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»[3]، وفي كتاب «الزُّهد» له[4]، والحاكم في «المستدرك»[5]، وابن أبي شيبة[6]، وابن سعد[7]، والبزَّار[8]، وأبو يعلى الموصلي[9]، وابن عديٍّ في «الكامل»[10]، والطَّبراني في «الأوسط»[11].

وطُرقُه متعدِّدةٌ لا يتَّسع الطِّرس[12] لسياقها والكلام عليها، وبالجملة قد أُعِلَّ بعضُها[13].

---

(2) «سنن النسائي» (3939، 3940) من طريق سلام أبي المنذر، وجعفر بن سليمان، كلاهما عن ثابت، عن أنس به.

(3) (12293، 12294، 14037) من طريق سلام أبي المنذر به.

(4) قال الزيلعي: «ورواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب «الزُّهد» لأبيه من غير طريق أبيه فقال حدَّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ثَنَا أَبُو معمر ثَنَا يُوسُف ابن عَطيَّة عن ثَابت عن أنس ...». «تخريج أحاديث الكشَّاف» (1 / 196).

(5) «المستدرك» (2709 ـ الميمان) من طريق جعفر ابن سليمان به، وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه»، ووافقه الذَّهبي.

(6) لم أقف عليه.

(7) «الطَّبقات الكبير» (1 / 342) من طريق سلام أبي المنذر به.

وأخرجه بنحوه أيضًا من حديث أبي إسحاق، عن عائشة، وهو منقطع، ومن حديث الحسن وغيره مرسلاً.

(8) «المسند» (6878، 6879) من طريق سلام وجعفر به.

(9) «المسند» (3482، 3530) من طريق سلام أبي المنذر.

(10) «الكامل» (5 / 372) من طريق سلام أبي المنذر، لكنَّه ذكره في ترجمة «سلام بن أبي الصهباء» وجعلهما واحدًا، وهما مفترقان، والحديث رواه أيضًا ابن أبي الصهباء، عن ثابت، أخرجه ابن أبي عاصم في «الزُّهد» (235)، وأبو الشيخ في «أخلاق النَّبيِّ ﷺ» (231).

وأخرجه ابن عدي أيضًا في «الكامل» (5 / 368) من طريق سلام ابن أبي خبزة، عن ثابت وعلي بن زيد، كلاهما عن أنس، وقال: «وقد رواه أيضًا عن ثابت عن أنس: سلام أبو المنذر وجعفر بن سليمان من رواية سيّار عنه، وأمَّا من حديث علي بن زيد عن أنس، فلا أعرفه إلاَّ من رواية سلام بن أبي خبزة.

(11) (5203) من طريق سلام أبي المنذر، وقال: «لم يرو هذا الحديث عن ثابت إلاَّ سلاَّم أبو المنذر».

(12) الطِّرْسُ: الصَّحِيفَةُ، وَيُقَالُ هِيَ الَّتِي مُحِيت ثُمَّ كُتِبَتْ، كما في كتب المعاجم.

(13) جمع المصنِّف بين طرق هذا الحديث من رواية أنس وغيره، وأشهر الطُّرق حديث أنس بن مالك، وقد رواه عنه ثابت البناني، وعن ثابت: سلام أبو المنذر، وسلام بن أبي الصَّهباء، وسلام بن أبي خبزة، وجعفر بن سليمان.

وابن أبي خبزة متروك، وابن أبي الصَّهباء ضعيف، وأبو المنذر هو ابن سليمان القارئ صدوق يهم، وجعفر ابن سليمان صدوق. =



وليس في شيء من طرقه فيما أعلم الرّواية بلفظ: «ثلاث»[14]، وبدونها لا إشكال في معنى الحديث، وبزيادتها يُشكِل، وقد أورد الحافظ المحب الطّبري هذا الحديث في «أحكامه» بدون ذكر «ثلاث»، ولم يعزُه إلاّ إلى النّسائي فقط، ثمّ قال: «وفي لفظ عند غيره: حُبّب إليّ من دُنياكم ثلاث»، ثمّ ذكره[15]. انتهى، ولم يسمّ مَن أخرجه بهذا اللّفظ، وقد أورده بإثبات لفظ «ثلاث» الغزالي في «الإحياء»[16]، وصاحب «الكشّاف»[17]، وشرحه كذلك في جزء مفرد للإسناد[18] أبو بكر بن فورك، واشتهر على الألسنة[19].

قال الحافظ المحب الطّبري:

«وربّما سبق إلى فهم كثير من النّاس أنّ الثّالثة: «وجُعلت قرّة عيني في الصّلاة»، وجعلها من الدّنيا لكونها واقعة فيها، وليس كذلك والله أعلم، بل الثّالثة غيرها، فذكر اثنتين وطوى ذكر الثّالثة، ثمّ استأنف قوله: «وجُعلت قرّة عيني في الصّلاة»، وإلى هذا أشار الزّمخشري في تفسير قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ [آل عمران: 97]، فقال: «يجوز أن تُذكر هاتان الآيتان. يعني مقام إبراهيم وأمن من دخله. ويُطوى ذكرُ غيرهما دلالة على تكاثر الآيات، قال: ونحوه في طيّ الذّكر قول جرير:

كانت حنيفة أثلاثًا فثلثُهُمُ

من العبيد وثلثٌ من مواليها»

أي: فلم يَذكر الثّلثَ الصّميم؛ لأنّ مقام هجائهم يقتضي ذكره[20].

قال: «ومنه قوله ﷺ: «حُبّب إليّ من دُنياكم ثلاث: الطّيبُ والنّساء، وقرّة عيني في الصّلاة»[21].

أي: فقوله: «وقرّة عيني في الصّلاة» كلامٌ مستأنف، بدليل رواية: «وجُعلت قرّة عيني في الصّلاة»، وقد مرّ تخريجها.

وقد أورد هذا الطرفَ من الحديث بهذا اللّفظ صاحب «الكشّاف» أيضًا في تفسير سورة البقرة[22].

ووجهُ كون الصّلاة ليست الثّالثة أنّها ليست من أمور الدّنيا، بل هي أهمّ أمور الدّين بعد الإيمان بالله، وأيضًا فإنّ غيرها من العبادات الواقعة في الدّنيا في محالها، كالصّوم والصّدقة والحجّ والعمرة وسائر ما يُقرّب إلى الله زُلفى

= وخالف هؤلاء الرّواة: حمّاد بن زيد، وهو إمام حافظ ثقة متقن، وأثبت النّاس في ثابت بن أسلم البناني، فرواه عنه مرسلاً من غير ذكر أنس.
ذكره الدّارقطني في «العلل» (12 / 40)، وقال: «والمرسل أشبه بالصّواب».
ومَن صحّحه أو حسّنه من أهل العلم نظر إلى كثرة طرقه وشواهده، كالعراقي وابن الملقن وابن حجر والسّخاوي والألباني وغيرهم.

(14) وكذلك قال المحقّقون من المحدّثين كابن تيمية وابن حجر والسّخاوي وغيرهم.

(15) «غاية الإحكام في أحاديث الأحكام» (2 / 476)، وهي رواية محمّد بن نصر في «تعظيم قدر الصّلاة» (322) والبيهقي في «السُّنن الكبير» (13583).

(16) «إحياء علوم الدّين» (ص1121).

(17) (1 / 587).

(18) كذا في الأصل، والكلام من قول الحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشّاف» (229)، قال: «على أنّ الإمام أبا بكر بن فورك شرحه في جزء مفرد بإثبات»، أي بإثبات «ثلاث»، وهذا الموافق للسّياق، ولعلّ الصّواب بالإثبات.

(19) انظر: «المقاصد الحسنة» (380).

(20) قال البغدادي في «خزانة الأدب» (5 / 39): «قال ابن السِّيْد في شرح كامل المبرد: هذا ممّا عيب عليه لأنّه لم يذكر الثّالث».
قال الآمدي: لمّا قال جرير هذا البيت قيل لرجل من بني حنيفة: من أيّ الأثلاث أنت؟ قال: من الثّلث الملغى. انتهى.
وأراد جرير بالثّلث المتروك أشرافهم، وترك الثّالث عمدًا؛ لأنّه في مقام الذّم لا يُثبت لهم أشرافًا صراحة.

(21) «الكشّاف» (1 / 587).

(22) يقصد الطّرف الأخير المتعلّق بالصّلاة، وانظر: «الكشّاف» (1 / 262).

محبَّبٌ إليه ﷺ، وقد يُدَّعى أنَّ منها بهذا التَّفسير الشَّهادةَ في سبيل الله، وذلك ممَّا يَبعُد معه كون الصَّلاة هي الثَّالثة.

قال بعضُ من تكلَّم على «الكشَّاف»:

«كأنَّه ﷺ لمَّا ذكر الأوَّلين أعرض عن الثَّالث قائلًا: ما لي وللدُّنيا، وما للدُّنيا وما لي؟! وذكر أنَّ قرَّة عينه في الصَّلاة المشتملة على مناجاة المولى والخضوع له والإقبال بالكليَّة عليه، وهي حالة الانقطاع ظاهرًا وباطنًا إليه، فطيُّ ذكر الثَّالث هو مقتضًى على مقامه ﷺ»[23].

فإن قلتَ: فما الثَّالث الَّذي طوى ذكرَه وأعرض عنه؟

قلتُ: اللاَّئق الإمساك عن التَّصريح فيه بشيء دون توقيف؛ لتعارض الاحتمالات فيه ولا مُرجِّح؛ فإنَّ محبوباته ﷺ من الأمور الدُّنيوية متعدِّدة، ففي «الصَّحيح» أنَّه ﷺ كان يُحبُّ الحلواء والعسل[24]، وأنَّه ﷺ كان يُحبُّ الكتف[25]، وأنَّه كان يحبُّ الدُّبَّاء[26]، وأنَّه ﷺ كان يُحبُّ الحسن والحُسين، فقال: «اللَّهمَّ إنِّي أحبُّهما فأحبَّهما»[27]، وقد قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: 46]، ولا مرجِّح لتعيين شيء من هذه ولا من غيرها من محبوباته والحكم بأنَّه يُخصُّ منه الثَّالثة.

وممَّا ينبغي أن يُتَنبَّه له أنَّ حبَّه ﷺ الطِّيبَ والنِّساء ونحوهما من أمور الدُّنيا ليس لكونه من أمور الدُّنيا كما يحبُّهما غيرُه ﷺ لذلك، على ما يشير إليه إضافةُ الدُّنيا إلى غيره في قوله ﷺ: «من دُنياكم» على رواية من روى ذلك، بل حبُّه ﷺ إيَّاها لمصالح دينيَّة وحِكَم يترتَّب عليها.

فمِن المصالح في النِّساء حفظُ الأحكام للأفعال السِّريَّة الَّتي تجري بين الرَّجل وأهله، أو يستحيي كثيرٌ من النِّساء من سؤال الرِّجال عنها كأحكام الحيض والنِّفاس وضَبطِها وتَبليغها عنه ﷺ، وذلك من حِكَم إباحَة الزِّيادة على أربع من النِّساء له ﷺ[28].

وفي الطِّيب إكرام الملائكة الَّذين يلقاهم ﷺ، والإحسان بذلك إلى مَن يدنو منه ﷺ، زيادة على ما أكرمه الله تعالى به من الإحسان بالطِّيب الخَلْقي، فقد كان عَرَقُه ﷺ ورائحتُه ﷺ من أطيب الطِّيب[29]، وتشريعُ الإحسان بذلك إلى مَن يدنو من الإنسان؛ لأنَّ إنالته الرَّائحة الحسنة إحسانٌ إليه.

ومن الحِكَم في محبَّته العسلَ أنَّ الله سبحانه أثنى عليه في كتابه العزيز، والحلواء تُتَّخذ منه، ومن الحكمة في محبَّته الكَتِفَ أنَّ الله خَلَقَه أطيبَ الأعضاء المأكولة وخيرها غذاء كما قُرِّر في الطِّب، ووراء ما ذكرناه من الحِكم ما لا تتَّسع له هذه الرُّقعة، وفيما ذكرناه منها تنبيه على ما عداه، والله تعالى وليُّ الهداية والتَّوفيق.

ooo

كتبه الفقير: محمَّد بن أبي شريف حامدًا مصليًّا مسلِّمًا[30].

ooo

(23) لم أقف على قائله.

(24) «البخاري» (5431)، و«مسلم» (1474).

(25) في «البخاري» (3340)، و«مسلم» (194) من حديث أبي هريرة، قال: كُنَّا مع النَّبيِّ ﷺ في دَعْوَة، «فَرُفِعَ إِلَيْه الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ منهَا نَهْسَةً»، وفي رواية لمسلم: «فَتَنَاوَلَ الذِّرَاعَ وَكَانَتْ أَحَبَّ الشَّاة إِلَيْه».

(26) يشير إلى حديث أَنَس، قَالَ: «دَعَا رَسُولَ الله ﷺ رَجُلٌ، فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ فَجِيءَ بِمَرَقَة فيهَا دُبَّاءٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَأْكُلُ مِنْ ذَلكَ الدُّبَّاءِ وَيُعْجِبُهُ»، قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلكَ جَعَلْتُ أُلْقيه إِلَيْه وَلا أَطْعَمُهُ، قَالَ: فَقَالَ أَنَسٌ: «فَمَا زِلْتُ بَعْدُ يُعْجِبُنِي الدُّبَّاءُ»، وهو في «البخاري» (5379)، و«مسلم» (2041) واللَّفظ له.

(27) «البخاري» (3747).

(28) مراد المصنِّف أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا ذكر حبَّه للنِّساء، فهو يشير إلى أنَّ أمَّته ينبغي أن تكون تبعًا له في ما يحبُّه، فإذا أحبَّ المؤمن النِّساء صَرفه ذلك الحبُّ إلى معرفة الأحكام المتعلِّقة بالمرأة ومعاشرتها وكلِّ ما يتعلَّق بشأنها، وهذا التَّأويل فيه تكلُّف، والله أعلم.

(29) يشير إلى ما رواه مسلم في «صحيحه» (2331) عن أنس بن مالك، قَالَ: «دخَل علينَا النَّبيُّ ﷺ فقال عندنَا، فَعَرِقَ، وجاءتْ أُمِّي بقارُورة، فجعلَتْ تَسْلتُ العَرَقَ فيها، فَاستَيقظ النَّبيُّ ﷺ فقَال: يا أَمَّ سُلَيْم! مَا هذا الَّذي تَصْنَعينَ؟» قالت: هذا عَرَقُكَ نَجعَلُهُ في طيبِنَا، وهو منْ أَطْيَبِ الطِّيبِ».

(30) تمَّت مقابلته مع الباحث عمَّار تمالت بعد فجر يوم الثُّلاثاء السَّادس من ذي القعدة 1437 ـ الموافق للتَّاسع أوت 2016 قبالة المسجد الأعظم بالجزائر العاصمة، والحمد لله وحده.

الألفيات

ومن نظمها من أعلام الجزائر

عبد الله مسكين

ليسانس في العلوم الإسلامية

النَّظمُ العلميُّ: هُو صِياغَة العُلومِ والمعارفِ في قالبٍ شعريٍّ؛ الظَّاهرةُ الَّتي بَرزَت في وقتِ ازدَهرتْ فيه العُلومُ؛ وارْتقَى فيه العقلُ المسلم، وكَان إقبالُ النَّاس على العلمِ منقطعَ النَّظير، فَأُنشئت الأنظَامُ التَّعليميَّة، الَّتي تُخاطب العَقل؛ لأنَّه أداةُ التَّلقِّي في مثلِ هَذا اللَّونِ من المعارفِ، بخلافِ الشِّعرِ الوجدانيِّ الخياليِّ[1]، ولهذا استعملوا فيها العبارَات السَّهلَة، والتَّركيبات السَّلسَة، وعلى بَحرِ الرَّجز ـ غالبًا ـ لأنَّه أَخفُّ البُحُورِ، وعَلاوةً على هَذا؛ فهي صمَام أمانٍ للمعَارفِ ذاتها؛ لما يَدخُل على النَّثرِ من تصحيفٍ يَأباه النَّظمُ بعَروضِه، وبما أحدَثتْهُ من حَركةٍ علميَّةٍ تتمثَّل في ذَاتها والشُّروحِ والحَواشي والطُّررِ عَليها، إلى غيرِ ذلكَ من الميزاتِ الَّتي اصطَبغَ بها هَذا الفَنُّ الَّذي يَدلُّ على رُقيٍّ وكمالٍ ونُضجٍ علميٍّ، حتَّى أَصبَح التَّفنُّن رداءَ العلماءِ في المنقُولِ والمعقُولِ.

وجَرْيًا عَلى عَادةِ العلماءِ في تَقريبِ العُلومِ، وعَقْدِ المَنثورِ في قَالَبِ المَنظومِ، وتربيةِ النَّشءِ والطَّلبَةِ على السَّبيلِ القَويمِ، وحَثِّهم على الجمعِ بين الفَهمِ والحفْظِ المتينِ، سَار عُلماؤُنا في أَلفيَّاتهِم واقْتفَوا أَثرَ السَّالفِينَ.

ooo

(1) فبكونِه علميًّا ومجرَّدا من العاطفة والخيال تميَّز عَن الشِّعرِ الأَدبيِّ بضُروبِه.

○ تَعريفُ الأَلفيَّة:

لُغةً: ما نُسِبَ إلى الأَلْفِ من العَدَدِ[2].

اصطلاحًا:

مَا اشتَملَت على أَلْف بَيْتٍ في أيِّ فنٍّ كانَت، وقد تُطلَقُ تَغليبًا على ما قَارَبَهَا بزيادةٍ في الأبياتِ أو نَقصٍ؛ إلغاءً للكَسرِ أو جَبرًا للنَّقص.

أَو هي: نَظمٌ علميٌّ أَبيَاتُهُ أَلفٌ أو يُقارِب[3].

○ شَرحُ الحَدِّ:

فالقَولُ بأنَّه «نَظمٌ»: أَي كَلامٌ مَوزُونٌ مُقفًّى، وخَرَجَ به ما كان نَثرًا.

وأنَّه «علميٌّ»: أي يتَناولُ المَعارفَ والعُلومَ وقَواعدهَا، فخَرجَ به الشِّعرُ الأَدبيُّ، فَهو وإن كان مَوزُونًا مُقفًّى لكنَّه يَنبثِق من العَاطفَة والخَيالِ.

وأنَّ «أبياتَه أَلْفٌ»: خَرجَ به مَا لم يَكُن أَلفًا.

«أَو يُقارِب»: دَخل به ما قَاربَ الأَلفَ بزِيادَةٍ أَو نَقصٍ يَسيرَين، مما تَجْري فيه عَادة العَربِ من الجَبرِ وإلغاءِ الكسرِ في العَدِّ.

○ وهَلْ يَدخُلُ مَا بَلغَ الأَلْفَينِ أو أَكثَر؟

الظَّاهرُ لا، وقد يُستَدلُّ له بما اصْطَلَحَ

(2) «تاج العروس» (23 / 39).

(3) لم أَقف على حَدٍّ للألفيَّة، إلا ما قدَّم به محقق «فتح المغيث» (1 / 128) بقوله: «وأمَّا الألفيَّات ـ وهي المنظومات الَّتي تبلُغ أبياتُها أَلفًا...»، وهو في هذا تابعٌ للعلماء الَّذين شَرحُوا لفظَ (ألفيَّة) من قول ابن معط وابن مالك ومن تَبعهُما، ولم يخرج هذا منهم مخرجَ الحدِّ والتَّعريف، وإنما هو وصفٌ لصنيع النُّظَّام، وفي موضع تالٍ (1 / 131) قال: «وإذا كان لفظ الألفيَّة منسوبًا إلى الألف من العَدد، كما جاء في تاج العروس... فزيادة البَيتَين على الأَلف لا تعارضُ كونَها ألفيَّة؛ لأنَّ هذه الزيادة قليلةٌ، والعربَ قد تُلغي الكسر. والله أعلم»، وهذه إضافة تُحَدُّ من جانبٍ.

عليه القومُ مِن تَسمية «الخُلاصَة» لابن مالك بـ«الألفيَّة»، بخلاف أصلها «الكَافيَة الشَّافيَة»[4] له أيضًا.

○ مَن أوَّلُ مَن نَظمَ ألفًا؟

يُقال إنَّ أوَّلَ مَن سَنَّها هُو ابنُ سِينَا (428هـ) في الأُرجُوزَة الطِّبِّيَّة[5]، لَكنَّني وَقفْتُ على مَن هُو أقدَم منهُ، فَقَد ذُكِرَ[6] أنَّ لأحمدَ بن عُلويَّة الأصبَهاني (ت:312هـ تقريبًا، وقيل: 320هـ) قصيدةً شيعيَّةً على ألف قافية،

وللعلَّامَة النَّحويِّ ابن مُعطي الزَّواوي الجزائري. فيما بَلغَنا. أوَّليَّةٌ خاصَّةٌ بعِلم النَّحو[7]، ثُمَّ رغَّبَ في السُّنَّة ابنُ مالكٍ؛ وأكَّدَها السُّيوطي، وتَعاهَدهَا عبد الرَّحمن حَفصي التَّواتي[8].

○ ثُمَّ الاقتصارُ على الألف. أو ما قاربَ. مَا الحكمةُ منه؟

لَم أرَ مَن نَصَّ على ذَلكَ إلَّا تلميحًا، ويمكن أن يُقال:

إنَّها جادَّةٌ مسلوكةٌ دَأَبَ عليها النُّظَّام من العُلماء.

ثمَّ إنَّها تَجمَعُ هَمَّ الطَّالب في الفنِّ على مَتنٍ واحدٍ.

ومع ذلك الاقتصارِ. على المتنِ الواحدِ. فإنَّه لا يَعدِم استيعابًا لأصولِ الفنِّ، ممَّا يُسنَد إليه فروعَه، ويَبني عليه مَلَكتَه، عُمقًا علميًّا، وترتيبًا مُحكَمًا، ففي هذا جانبٌ من التَّيسيرِ المنشود.

ثُمَّ إنَّ طَالبَها يَكتسب ملَكَةً في الصَّبر والجَلَد تُمكِّنه من الغَوص في مُطَوَّلات الفَنِّ؛ قد لا تتأتَّى لغيرِه ممَّن حادَ عنها.

مَع ما ينضافُ إليه من المميِّزات العامَّة. المشهورة. للأنظام العلميَّة[9]، قال ابنُ معط مُبيِّنًا هذا المقصَدَ:

أُرْجُوزَةٌ وَجِيزَةٌ فِي النَّحْوِ
عِدَّتُهَا أَلْفٌ خَلَتْ مِنْ حَشْوِ
لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ حِفْظَ النَّظْمِ
وَفْقُ الذَّكِيِّ وَالْبَعِيدِ الْفَهْمِ

وقال العلَّامة ابن بادي الكُنتي في «ألفيَّة الفنون»:

حَاكَتْ بِتَقْرِيبِ الْعُلُومِ مَا زَجَوْا
فِي الْعَصْرِ بِالتَّقْرِيبِ طَيَّارًا بِجَوْ
بِحَيْثُ مَنْ رَامَ الْعُلُومَ ثُلْثَ عَامْ
نَالَ وَمَنْ بِظِمْإٍ فِيهِ عَامْ

أي أنَّها تُقرِّب العلومَ كما تُقرِّب الطائرةُ المسافات، وأنَّ مَن طَلبَ عُلومَ ألفيَّته. وسياقُنا يَعمُّ. كَفَتْه أربعةُ أشهُرٍ لتحصيلها لمتوسِّط الحفظ. كما قالَ في شَرحِه[10]..

○ وقد اعتنَى أعلامُ الجَزائر بمثْل هَذَا، وسَنَذكُر أمثلةً ممَّا وَقفنَا عليه من غير استقصاء، مُرتِّبًا لهم على السِّنين. رَحِمهُم الله.:

○ يحيى بن عبد المعطي الزَّواوي (628هـ): «الدُّرَّة الألفيَّة في علم العربيَّة»[11] في النَّحو.

أوَّلُ ألفيَّة في النَّحو. عدَّتها ألفٌ وواحدٌ وعشرُون بيتًا.، وأوَّلُ نظم تعليميٍّ جزائريّ[12]، وهُو أوَّلُ مَن مَزَجَ بينَ بَحرَين في نَظم وَاحد؛ وهُما الرَّجَزُ والسَّريعُ لتَقارُبهمَا، وقد لخَّص لَنا المقَّري[13] القَولَ فيها مُقارِنًا لَها بألفيَّة ابن مالك، وأنَّ «نَظمَه أجمَعُ وأوعبُ، ونَظم ابن معطي أسلسُ وأعذَب».

○ أبو عبد الله محمَّد بن مرزُوق (الحفيد) التِّلمسَاني (842هـ): «أرجوزةٌ ألفيَّة في محاذاة الشَّاطبيَّة»[14]، مَفقُودةٌ.

○ أبو العبَّاس أحمدُ بن القَاسم البُوني (1139هـ): «الدُّرَّة المصُونَة في علماء وصُلحاء بُونَة»، و«نظمُ كتابِ الجامع للشَّيخ خليل»[15]، ونظمٌ آخرُ سَمَّاهُ: «فتحُ القريب بأشرف غَريب»[16].

أمَّا «الدُّرَّة المصُونَة» فهي مطبوعة[17].

وأمَّا الألفيَّتان الأُخرَيَانِ فَلم يُسفِر عَنهما الزَّمن بعدُ.

(4) عدَّتها: ألفان وسبعمائة وخمسةٌ وخمسونَ بيتًا.
(5) طُبعت بالمطبعة الحجريَّة.
(6) «معجم الأدباء» (1 / 409)، «هدية العارفين» (1 / 57).
(7) وجزم سليمان البلكيمي في «الدُّرَّة الألفيَّة» (ص15) بأنَّ ابن معطٍ يُعدُّ الرَّائد في استعمالِ لفظ الألفيَّة في أشعاره.
(8) ليس على سبيل الإحصاء، فلقد نُظم غيرُها من الألفيات قَبلُ وبَعد.
(9) من سُرعَة الحفظ، وَسُهولَة الاستحضَار، ورُسوخها في القَلب، واختصَارها الطَّريقَ على الطَّالب، وحفظها وَقتَه ضَبطًا ومُراجَعةً، قال الجاحظ «الحيوان» (4 / 464): «فإنَّ حفظَ الشِّعر أهوَنُ عَلى النَّفس، وإذا حُفظ كَان أعلَق وَأثبَت، وكانَ شَاهدًا، وَإنِ احتِيجَ إلى ضَربِ المَثل كَان مَثلًا».
(10) (ص94ـ95).
(11) طبعت بعناية: سليمان البلكيمي، عن دار الفضيلة بمصر (1431هـ).
(12) «الشِّعر التَّعليمي في الأدب الجزائريِّ القديم.. ابن مُعطي نموذجًا» لعبد الرحمن عبان (ص77).
(13) «نفح الطِّيب» (2 / 232).
(14) «تعريف الخلف برجال السَّلف» (ص74)، «معجم أعلام الجزائر» (ص291).
(15) «تعريف الخلف» للحفناوي (2 / 521).
(16) «تعريف الخلف» للحفناوي (2 / 518)، وأُرجِّحُ أنَّه عَقَدَ فيه كتابَه: «تحفةُ الأريب بأشرف غريب» الَّذي اختصر فيه «غريب القرآن» للعزيزي، كما يغلب على ظنِّي أنها ألفُ بيت أو تقارب، لأنه قد عقد أصل العزيزي في (4000) بيتٍ تقريبًا، وله الأنظامُ الكثيرةُ لم تُسفِر الأيَّامُ عنهَا بَعدُ.
(17) طُبع بتقديم وتحقيق سعد بوفلاقة، بمنشورات بونة للبحوث والدراسات، سنة (1428هـ).



○ محمَّـد بـنُ العـالم الزَّجلَـوي (1212هــ): «أَلفيَّةُ الغَريـبِ»[18] و«أَلفيَّةُ التَّفسيرِ».

أمَّـا أَلفيَّـة التَّفسـيرِ فهـي في عـداد المفقُـود، وأمَّا أَلفيَّة الغَريـبِ فهي أُرجُوزَة في غَريبِ أَلفَاظِ القُرآن، ابتدأَها بمقدِّمة في نسـبَة الألفـاظ للمَعَاني وبَيانِ شَـرف تَعلُّم الغَريبِ، ثمَّ أقسام ثَلاثة:

1 ـ الغريـبُ المكـرَّر في السُّـور: ورتَّبه على سُورِ القُرآنِ.

2 ـ الغريـبُ الخاصُّ بسُـورَة: ورتَّبـهُ والَّـذي بعـدَه تَرتيبًا أَلفبَائِيًّـا عَلى طريقةِ المغاربَة.

3. الوجُوه والنَّظائر.

وقد جَـاءت المنظُومةُ في أَلـف وثلاثة أبياتٍ، مِن بَحرِ الرَّجزِ، نَظمُه سَـهلٌ جَيِّدٌ في الغَالـبِ، مَـع رَكاكَـة في بَعضِ أَبيَاته، اعتَمدَ فيها عَلى عِدَّة مَصـادر، ولَم يَعقد فيهـا كتابًا بعَينِـه، وتفرَّد بنظمِـه للوُجوهِ والنَّظائر على وَجه الشُّمول وَالاستيعاب.

○ عبـدُ القـادر بـن محمَّـد المجَّاوي (1332هـ): «أَلفيّـةٌ في الكَلمات الجَاريةِ منَ الفرَنْسيَّة عَلَى الأَلسُن»[19] وفيهَا:

وَإِنْ تُحَيِّ فِي الصَّبَاحِ قُلْ (بُنْجُورْ)
وَلَفْظَةُ الدَّوَامِ عِنْدَهُمْ (تُجُورْ)

لَم أَقف عَليهَا.

○ محمَّـد البَشـيرُ الإبرَاهيمـيُّ (1355هــ): «الأَلفيَّـةُ: أُرجُـوزَةٌ للمُؤلِّف بَديعـةٌ، نَظمَها تفسـيرًا لمشـكلة مُوظَّف؛ هُـو عَبـدٌ لوظيفَته وعَبـدٌ للشَّـيطَانِ، هي من أَبدَعِ مَا قَالَ ـ لَعَنهُ اللهُ!! ـ يَصِـف فيها أَوليـاءَه، وَقـد وَصَـفَ المشـكلةَ وشَـرحَهَا بلسَانها مُترجمةً عَن نَفسها، وَفيهَا فُصولٌ طِوالٌ في شَخْصَـين اثْنَين منهُم، أَحدُهما المشـكلة؛ وَهي وَإِن كَانت في شَـخص فَهي صَـادقَةٌ فيهم جميعًا»[20]، وهـي في عِدادَ المفقُود ـ لَا حَرمَنا اللهُ منها ـ.

○ محمَّـد بـن بَـادي الكُنتـيُّ (1388هــ): «زينَـةُ الفُتيان» المشـهُورة بـ«أَلفيَّـة الفُنون»[21] في ثمانيةَ عَشَـرَ فنًّا، نَظمَ «النُّقاية» للسُّـيوطيِّ وزَاد عليه أربعةَ فنون، نَظمَ عُلومَها قائلاً:

تَوْحِيدٌ، تَفْسِيرٌ، حَدِيثٌ، فَأُصُولْ
فَـرَائِضٌ، نَحْوٌ، وَتَصْـرِيفُ الْمَقُولْ
خَطٌّ، مَعَـانٍ، فَالْبَيَـانُ، فَالْبَدِيعْ
تَشْرِيحٌ نِ، الطِّبُّ، التَّصَوُّفُ الرَّفِيعْ
وَزِدْتُ سِيرَةً، وَتَنْجِيمًا، حِسَـابْ
وَذِكْـرَ جَـمٍّ مِـنْ عُـلُومٍ قَـدْ تُعَابْ

أَي: بَـيَّن العُلـومَ المذمُومـةَ، قَـال في شَـرحه[22]: «أَيْ كَثـيرًا مـن العُلـوم الَّتـي قَـد تُـذَمُّ من وَجْه، وقَـد تُذَمُّ مـن كُلِّ وَجه شَـرعًا، وَذكَرتُ منهَا نَحوًا من ستَّة وستِّينَ بالتَّفريـع»، وهـي أُرجُـوزَةٌ من أَلْـفِ بيت، ضَـغطَ فيهَـا العُلـومَ ضَـغطًا، فَأثَّـر ذلك علـى أُسـلُوبها، فَجـاءَت غَامضَـةً، كَثيرَة الضَّـرورَات، كَمـا أنَّـه اتَّبع السُّـيوطي في عَقيدته الأشـعرية، وأَتـى ببعْضِ المَناكير في البَاب الأَخير.

○ محمـد بـاي بلعـالم (1430هـ): «الجواهـر الكنزيَّـة لنظـم مـا جُمـع في العزيِّة» في (1049) بيت[23].

○ الحاج عبد الرَّحمن حفصي: «فتحُ الكـريم الواجـد نظـمُ مقدِّمـة الأزهريِّ خالد» أَلفيَّةٌ في النحو[24].

○○○

تَجلَّـى لنـا سـويًّا اهتمـامُ أعـلام الجزائر ـ المحروسَة بالله ـ بتقريب العلوم للطَّلبة؛ وذلكَ بعقدهم للألفيَّات في فنونٍ مختلفـة، مـن نَحوٍ وفقـه وتَفسـيرٍ وعُلوم قـرآن وقـراءات وتاريـخ، وحتـى اللُّغات الأَجنبيَّـة، والشِّـعر القَصصـي، بَل حتَّى الألفيَّـة المتعـدِّدة الفُنون، وهـي ـ أي هَذه

(18) تناولها الأستاذُ عبد القادر بقّادر بالدِّراسة والتحقيق رِسالة ماجيستر بجامعة أدرار، وستَصدُر نشرةٌ أُخرَى قَريبًا بدار الميراثِ النَّبوي.

(19) نسبها له محمد علي دبوز في كتابه: «نَهضةُ الجزائر الحَديثة»، (1 / 82 ـ 105)، ورَجَّح عبد الرَّحمن دويب كَونها لعبد الحَليم بن سمايَة (1351هـ) بعدَّة قَرائن.

(20) «آثاره» (2 / 90).

(21) طُبعت بشرح النَّاظم ـ طبعةً تجارية ـ بتقديم: يحيى ولد سيد أحمَد، في جزأين، عن دار المعرفة ـ الجزائر ـ (1430هـ).

(22) (1 / 93).

(23) صدر عن دار بن حزم (1431هـ).

(24) نُشرت مرقونةً.

الألفيَّات. إذا نَظرنَا إلى أقسامِها على اعتبارات:

1. منهَا مَا هو في فَنٍّ مُفرد، ومنها ما جَمع فُنونًا مُختلفَةً.

2. ومنها مَا هو على بَحرٍ واحد، ومنها ما كَان عَلى بَحرَين.

3. ومنهَا مَا هُو عَقدٌ لأَصلٍ مَنثُورٍ، ومنهَا مَا هُو نَظمٌ ابْتدَاءً.

4. ومنها مَا اكتفى بالمنقُولات (العقائد والشَّرائع والمعاملات واللِّسانيَّات)، ومنهَا مَا زَادَ مَعهَا المَعقُولاتِ (المَعارف العقليَّة).

5. ومنها مَا هو سَلسٌ سَهلٌ، ومنها ما هُو دون ذَلك.

إلى غَيرِ ذَلكَ مِن الاعتِبارَاتِ...

ooo

○ وإنَّ ممَّا يُؤكِّد أهميَّة الاعتناء بهذه الأنظام العلميَّة عِدَّة أمور؛ أَقتَصِر منهَا عَلى ثَلاثَة:

الأُولى: قد نَجِد بَعضَ المسَائلِ والآراء تَفرَّدت بَعضُ المنظُومات بِها، وهَذا يَدلُّ عَلى أنَّها مَنهَلٌ للمعارِف كَالمَنثُورات تمامًا، فَلا استغناءَ عَنها حِينَئذ.

الثَّانية: أنَّه في مَعرِض الاحتجَاج والاستِدلَال العلميِّ؛ بَل في أوجِّ المناظرَة ومُقارَعة الدَّليل بالدَّليل، نَجدُ العُلمَاء يَحتَجُّونَ على الطَّرف الآخَر بما يَستظهرُونَه من نَظم لتلكَ المسَائل، وبَاتَتْ هذه ظاهرةً مُتكَاثرةً في الوَسط العلميِّ، وإنَّ دَلالَتهَا وَاضحَةٌ، وُضوحَ مَنزلة المنظومات العلميَّة بين طُلَّابِ العِلم.

الثَّالثة: يَتَراءى لكلِّ مُتعاطٍ للعُلوم والمعَارِف ما أَحدَثتهُ هذه المتونُ المنظُومَة مِن حَركَة علميَّة، تمثَّلت في كثرة الشُّروح والحواشي والطُّرر عليهَا، ممَّا لا يَدعُ مجالًا للشَّك في خدمة هَذه المتون للمَعارِف الَّتي يَطلبُها الإنسَان، فَهي بذلكَ كُلِّه مَظهَرٌ مِن مَظاهِر القُوَّة لَا الضَّعف.

وإذْ لَاحَ للقارئ الكريم الختامُ، فَليَعلَم يَقينًا أنَّ مَقالَتي لَا تَتعدَّى كَونَها مُحفِّزةً للبَاحثِينَ، مُسديًا النَّصيحةَ كما أَعرَبَ عنها مَن قَبلي[25]:

1. القيامُ بمزيدٍ من الدِّراسَات العلميَّة المعمَّقة للمنظومات العلميَّة.

2. الاستفادةُ مِن هذا الأسلوب في دراسَة العُلوم والمعارف، لا سِيما عُلوم الوسائل، وابتكار الطُّرقِ المفضِية إلى ذلكَ.

3. إحياءُ تُراثِ المنظومات العلميَّة وتَحْقيقِها.

4. العِنايةُ بما طُبع مِنهَا بإتمام النَّقصِ فيهَا، وذلكَ باعتماد التَّحقيقِ العلميِّ المعتَمدِ على النُّسخ الخَطِّيَّة.

وهَذه دِراسَاتٌ مُهمَّة حَولَ الشِّعر التَّعليمي:

- «العُلومُ العَقليَّة في المَنظوماتِ العَربيَّة - دراسَة وثائقيَّة ونصوص» أ.د جلال شوقي.
- «ظَاهرة النَّظم الأصولي - دِراسَة وتعريفٌ» د. مصطفى مخدوم.
- «ظَاهرة نَظم المُتونِ الفقهيَّة أَسبَابُها وآثارُها في الفقهِ الإسلَاميِّ» د. عبد المجيد صلاحين.
- «الفصولُ الخَمسون» لابن مُعطي، تحقيق: د. محمود الطَّناحي، المقدِّمة الدِّراسيَّة منه.
- «المنظُومات التَّعليميَّة ودَورُها في التَّعليم» جواد غلام علي زاده.

وَالحَمدُ لله أَوَّلًا وآخرًا.

ooo

(25) «ظاهرةُ النَّظم الأصوليِّ - دراسةٌ وتعريفٌ» د. مصطفى مخدوم.



مَـن هـم أهـلُ السُّـنَّة؟

(ردًّا على بيان مؤتمر الشيشان)(*)

مراد قرازة

رُمْتُ العُجَابَ فَلَمْ أُدْرِكْ بِهَا عَجَبَا   مِنْ طُرْفَةٍ نُقِلَتْ أَوْ بَاطِلٍ كُتِبَا

يُلْقَى لَكُمْ مَثَلاً مِنْ بَعْدِ أَنْ عَجَزَتْ   تِلْكَ الأَكُفُّ بِنَا أَنْ تُظْهِرَ الأَدَبَا

فَذِي عُيُونُكُمُ مِنْ بَاطِلٍ سُحِرَتْ   جُنْحَ الظَّلَامِ وَذَا حَادِيكُمُ نَكَبَا

فَهَلْ نُضِيءُ لَكُمْ دَرْبًا عَلَى عَمَهٍ   أَمْ نُبْطِلُ السِّحْرَ أَمْ نَهْدِيكُمُ السَّبَبَا؟

يَا مَنْ هَوَى بِكُمُ رَأْيٌ تَجَاذَبَهُ   هَوًى يُطَاعُ وَتَلْبِيسُ الَّذِي كَذَبَا

فَلْتَسْمَعُوا رَشَدًا قَدْ جَاءَكُمْ مَدَدًا   يُجْلِي بِسَكْرَتِكُمْ عَقْلاً قَدِ انْجَذَبَا

فَالسُّنَّةُ الْتَحَفَتْ فِي ثَوْبِهَا أُمَمٌ   تُخْفِي بِنِسْبَتِهَا مِنْ عَيْبِهَا شُعَبَا

كُلٌّ يَرُومُ لَهَا وَصْلاً فَتُنْكِرُهُ   إِلاَّ الَّذِي عَرَفَتْ مِنْ قَلْبِهِ صَبَبَا

فَالأَشْعَرِيُّ بِهَا يَهْذِي عَلَى خَرَفٍ   وَذُو التَّصَوُّفِ مَا يَرْجُو لَهَا نَسَبَا

وَلَيْسَ يَرْفَعُهَا صِدْقًا وَيَحْمِلُهَا   بَيْنَ الضُّلُوعِ سِوَى نَزْرٌ مِنَ الغُرَبَا

أَهْلُ الحَدِيثِ وَمَنْ سَارُوا بِسِيرَتِهِمْ   نُزَّاعُ قَوْمِهِمُ أَهْلُ التُّقَى النُّجَبَا

مَرَّ الزَّمَانِ هُمُ يُحْيُونَهَا شُعَلاً   مَرَّ الزَّمَانِ هُمُ يُعْلُونَهَا نُصُبَا

فَالنَّهْجُ عِنْدَهُمُ نَهْجُ الأُلَى وَلَهُمْ   فِي سَيْرِهِمْ سَلَفٌ يَكْفُونَهُمْ حَسَبَا

قَوْمٌ إِذَا تُلِيَ القُرْآنُ أَلْهَمَهُمْ   أَوْ جَاءَهُمْ أَثَرٌ طَارُوا بِهِ طَرَبَا

لَيْسَتْ لَهُمْ سُنَنٌ غَيْرَ الَّتِي شُرِعَتْ   وَالفَهْمُ عِنْدَهُمُ آثَارُ مَنْ صَحِبَا

لاَ يَبْتَغُونَ بِهَا عَدْلاً وَإِنْ ظَهَرَتْ   فِي النَّاسِ مُحْدَثَةٌ صَاحُوا بِهَا غَضَبَا

(*) مؤتمر انعقد في مدينة غروزني في عاصمة الشيشان التابعة لروسيا الاتحادية بتاريخ 22 ذو القعدة 1437 الموافق لـ 25 أوت 2016م تحت عنوان "من هم أهل السنة والجماعة؟ بيان وتوصيف لمنهج أهل السنة والجماعة اعتقادا و فقها وسلوكا و أثر الانحراف عنه على الواقع"، وقد كان عريًّا من هذه الدعوى حيث نال من علماء المسلمين و دعاة التوحيد وحصر أهل السّنة والجماعة في الأشاعرة والماتريدية في الاعتقاد وما إلى ذلك من الافتراءات والدعاوي العرية عن الحقائق.

التحرير

كَمْ أَخْمَدُوا فِتَنًا كَمْ أَلْجَمُوا بِدَعًا   كَمْ مِنْ هَوًى رَصَدُوا فِي صَدِّهِ الشُّهُبَا

فَهُمْ نُجُومُ هُدًى فِي لَيْلِهَا وَهُمُ   عِنْدَ النِّزَالِ بِهَا كَاللَّيْثِ إِذْ وَثَبَا

لِلهِ مَا صَرَفُوا دَوْمًا عِبَادَتَهُمْ   مِنْ بَعْدِ أَنْ عَرَفُوا قَدْرًا لَهُ وَجَبَا

لِلهِ مَا سَجَدُوا بِاللهِ مَا رَكَعُوا   فِي اللهِ مَطْمَعُهُمْ إِنْ يَرْتَجُوا طَلَبَا

وَاللهُ غَوْثُهُمُ إِنْ تَحْتَلِكْ كُرَبٌ   وَاللهُ غَايَتُهُمْ إِنْ يَفْزَعُوا هَرَبَا

لاَ يَجْحَدُونَ لَهُ وَصْفًا وَعِنْدَهُمُ   أَسْمَاؤُهُ فَرَبَتْ عَنْ حَصْرِ مَنْ حَسَبَا

وَيُذْعِنُونَ لِمَا جَاءَتْ بِحُجَّتِهِ   تِلْكَ النُّصُوصُ مِنَ الغَيْبِ الّذِي حُجِبَا

فَبِالمَلاَئِكَةِ الأَبْرَارِ قَدْ عَقَدَتْ   مِنْهُمْ قُلُوبُهُمُ مَا لَيْسَ مُنْقَلِبَا

مِنْ أَنَّهَا خُلِقَتْ لِلْبِرِّ فَانْتَصَبَتْ   لِلهِ طَائِعَةً لاَ تَبْتَغِي لَعِبَا

وَاللهُ أَبْلَغَنَا مِنْ رَحْمَةٍ رُسُلاً   وَاللهُ أَنْزَلَ مِنْ عَلْيَائِهِ الكُتُبَا

وَاللهُ جَامِعُنَا يَوْمًا وَسَائِلُنَا   ثُمَّ الجَزَاءُ بِهَا كُلٌّ بِمَا كَسَبَا

وَالنَّارُ مَوْعِدُ مَنْ يُعْصِي وَجَنَّتُهُ   وَعْدُ الّذِي عَرَفَ الإِخْلاَصَ وَالتَّعَبَا

أَقْدَارَ خَالِقِنَا قَدْ أَثْبَتُوا وَهُمُ   قَدْ أَوْسَعُوا حُجَجًا فِيهَا مَنِ اضْطَرَبَا

ثُمَّ الرِّضَى بِهِمُ عَنْ آلِ سَيِّدِنَا   وَالصُّحْبِ كُلِّهِمُ وَالتَّابِعِ العَقِبَا

وَالدِّينُ عِنْدَهُمُ قَوْلٌ يُصَدِّقُهُ   مِنْ فِعْلِ صَاحِبِهِ مَا يَرْفَعُ الرِّيَبَا

وَالقَلْبُ إِنْ سُئِلُوا أَصْلٌ لَهُ ثَمَرٌ   مَنْ يَبْتَغِي ثَمَرًا مِنْ دُونِهِ كَذَبَا

وَالكُفْرُ مُعْتَقَدٌ طَوْرًا وَمَا كَسَبَتْ   تِلْكَ الجَوَارِحُ لاَ تَعْبَأْ بِمَنْ عَتَبَا

وَاسْلُكْ مَسَالِكَهُمْ تَلْقَى جَوَائِزَهُمْ   وَفِي المَعَادِ غَدًا مَا تَنْتَشِي طَرَبَا

فَالعَالِمُونَ هُمُ وَالعَامِلُونَ هُمُ   أَهْلُ الخَلاَقِ هُمُ إِنْ تَطْلُبِ الأَدَبَا

وَالصَّادِقُونَ هُمُ وَالمُخْلِصُونَ هُمُ   وَالصَّابِرُونَ وَقَدْ ذَاقُوا بِهَا لَهَبَا

وَالطَّيِّبُونَ وَهُمْ أَهْلُ التُّقَى وَلَقَدْ   جَادَ الإِلَهُ لَهُمْ مِنْ خَيْرِ مَا كُسِبَا

وَاللهُ يَرْزُقُنَا سَيْرًا كَسَيْرِهِمُ   فَقَدْ تَقَاصَرَ عَنْهُمْ سَعْيُ مَنْ رَغِبَا

لَكِنَّنَا بِهَوَى قَوْمٍ نُؤَمِّلُ أَنْ   نَحْظَى بِصُحْبَتِهِمْ دُونَ الَّذِي نَكَبَا



العجلة... وتوابعها

صالح الكشبور
مرحلة الدكتوراه - جامعة الجزائر



○ **تعريف العجلة:**

لغـةً: العجـل والعجلـة، مُحرَّكَتـيْن: السُّـرعة، خـلاف البطء والتَّـأنِّي، ورجل عَجُلٌ - بكَسْرِ الجيم وضَمِّها - وعَجْلانُ[1] وعَاجِـلٌ وعَجِيـلٌ؛ مَن قوم عَجَـالَى - بفتح وكسـر وضـمِّ العـين، أي ثلاثيَّـة العين -، وامـرأة عَجْلَى، ونسـوة عَجَـالَى وعِجَالٌ، كَرَجْلَى ورَجَالَى ورِجَالٌ[2].

اصطلاحًـا: طلب الشَّـيء وتحرِّيه قبـل أوانه[3]، أو: هي تقديم الشَّـيءِ على أوانـه المضـروب أو المقـدَّر لـه أو الموعود به[4].

○ **كنيتها:**

قـال أعرابـي: «إيَّاكم والعَجلـة؛ فإنَّ العرب تكنِّيها أمَّ النَّدامات».

ذلـك أنَّ العجـولَ لا يوجـد إلاَّ نادما، وأغلـب تصـرُّفاته مآلهـا إلى النَّـدم والحسرة، قال أبو حاتم ابن حبَّان رَحِمَهُ اللَّهُ: «العجلةُ موكَلٌ بها النَّدمُ، وما عجل أحدٌ إلاَّ اكتسب ندامةً واسـتفاد مذمَّةً؛ لأنَّ الزَّلل مع العجل، والإقدام على العمل بعد التَّأني فيه أحزم من الإمسـاك عنه بعد الإقدام عليـه ولا يكون العجول محمـودًا أبدًا»[5]، وقد قيـل: «الأناة من الله تعـالى والعجلة من الشَّيطان»[6] ذلك لأنَّ الأعمال ينبغي أن تكون بعد التَّبصرة والمعرفة، والتَّبصرة تحتاج إلى تَأمُّـل وتمهُّل والعجلة تمنع من ذلك، وعند الاسـتعجال يرَوِّج الشَّـيطان شـرَّه على الإنسـان من حيث لا يدري[7]، قـال المنـاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هـو - أي الشَّـيطان - الحامل عليها بوسوسته؛ لأنَّ العجلةَ تمنع مـن التَّثبُّت والنَّظر في العواقب وذلك وقع في المعاطـب، وذلـك مـن كيد الشَّـيطان ووسوسته»[8].

ooo

(1) ويطلق «عجلان» على شهر شعبان، سُمِّيَ بذلك لسرعة مُضيِّه وانقضائه؛ لأنَّ الصَّوم يَفْجَأ في آخره، انظر «تاج العروس» (432/29).
(2) «لسان العرب» «مادَّة عجل» (2821/4)، «تاج العروس» (431/29).
(3) «الرُّوح» (ص258)، «المفردات في غريب القرآن» (ص323).
(4) «تفسير المنار» (311/11).
(5) «روضة العقلاء» (ص217).
(6) رواه التِّرمذي مرفوعًا إلى النَّبيِّ ﷺ وهو ضعيف، ضعَّفه العراقي في «المغني في تخريج الإحياء» (16/2)، والألباني في «ضعيف سنن التِّرمذي».
(7) «الإحياء» (33/3).
(8) «فيض القدير» (184/3) بتصرف.

○ تجنُّب العجلة:

والعجلة من غرائز الإنسان الَّتي اقتضتها الشَّهوة، وهي من الصِّفات الذَّميمة الواجب معالجتها بالتَّهذيب الشَّرعي، والقابلة لتأديبها بالتَّزكية الأثريَّة كي لا تطغى بصاحبها فتوردَه الموارِدَ، ولا سبيل لدرئها وتقليلها إلاَّ بالأخذ بالإرشاد الرَّباني والتَّوجيه النَّبوي، مع معرفة عواقب العجلة القبيحة وعواقب الأناة المليحة، قال أبو حاتم ابن حبان: «الواجب على العاقل لزوم الرِّفق في الأمور كلِّها وترك العجلة والخفَّة فيها؛ إذ الله تعالى يحبُّ الرِّفق في الأمور كلِّها، ومن مُنع الرِّفق مُنِعَ الخير، كما أنَّ مَنْ أُعْطِيَ الرِّفقَ أُعْطِيَ الخيرَ، ولا يكاد المرء يتمكَّن من بُغيَته في سلوك قصده في شيء من الأشياء على حسب الَّذي يُحبُّ إلاَّ بمقارنة الرِّفق ومفارقة العجلة»[9]، فكم جرَّ هذا الخلق على صاحبه من بلايا وفوَّتَ عليه من خيرات ومزايا، ذلك أنَّ نفسَ الإنسان إذا أرادت شيئًا وتاقت إليه رغبت في نيله وتطلَّعت لتحصيله ليتمَّ لها لذَّتُها فيما تستشرف له، ولا شكَّ أنَّ هذه النَّفسَ بمقتضى طبيعتها لا تتحرَّك إلاَّ فيما تحبُّه، ولا تبعد وتَنْأى إلاَّ عمَّا تبغضه أو تبعد عن محبوب لكن لِمَا هو أحبُّ إليها من ذلك المحبوب، فإذا لم يتمَّ للإنسان تزكيةُ نفسه وهدايتها وإرشادها فستُحبُّ وتميل بطبيعتها إلى الشَّهوات والَّتي ما تلبث أن تسرع في إدراكها؛ لأنَّها وبحسب جِبِلَّتها - العجلة - تتضجَّر ولا تتأنَّى إلى أن يزول عنها ما يعتريها بل تسارع إلى طلب ما يخطر ببالها متعامية عن ضرره ولو كان من الرَّذائل، وكذلك فإنَّها تستثقل ما ينفعها وتتكاسل عن كسبه ولو كان من الفضائل، وقد قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «من العجائب أنَّ الفضائلَ مُسْتَحْسَنَةٌ ومُستَثْقَلةٌ، والرَّذائل مُستقبَحَةٌ ومستخَفَّةٌ»[10].

ثمَّ إنَّ أفرادَ النَّاس متفاوتون في هذا الاستعجال على حسب تفاوتهم في غور النَّظر والفكر ولكنَّهم مع ذلك لا يخلون عنه[11]، فلذلك كانت العجلة مذمومةً في عامَّة القرآن فمن ذلك قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [سُورَةُ الأَنبِيَاء]

وقد اختلف المفسِّرون في المراد من هذه الآية، والأظهر - على ما رجَّحه غيرُ واحد - أنَّ جنسَ الإنسان من طبعه العَجَلُ وعدم التَّأني[12]، قال الألوسي: «والمراد بالإنسان جنسُه، جُعل لفرط استعجاله وقلَّة صبره كأنَّه مخلوقٌ من نفس العَجَل تنزيلًا لما طُبِعَ عليه الأخلاق منزلةَ ما طُبِعَ منه من الأركان إيذانًا بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه».

وقال السعدي: «أي: خُلِقَ عجولًا يبادر الأشياء ويستعجل بوقوعها؛ فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين ويتباطؤونها، والكافرون يَتَوَلَّوْن ويستعجلون بالعذاب تكذيبًا وعنادًا، والله تعالى يمهل ولا يهمل، ويحلم ويجعل لهم أجلًا مُؤَقَّتًا، ولهذا قال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ أي: في انتقامي ممَّن كفر بي وعصاني ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ ذلك»[13].

وقال الشَّنقيطي: «المراد بالعجل هو العجلة الَّتي هي خلاف التَّأنِّي والتَّثبُّت، والعرب تقول: خُلِقَ من كذا؛ يعنون بذلك المبالغة في الاتِّصاف، كقولهم: خُلِقَ فلانٌ من كَرَم، وخلقت فلانة من الجمال، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾»[14]، هذا والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هاهنا أنَّه لمَّا ذَكر المستهزئين بالرَّسول ﷺ وقع في النُّفوس سرعةُ الانتقام منهم واستعجلت، فقال الله تعالى ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأنَّه تعالى يُمْلي للظَّالم حتَّى إذا أخذه لم يفلته، يُؤَجِّل ثمَّ يُعَجِّل، ويُنْظِر ثمَّ لا يُؤَخِّر، ولهذا قال ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ أي: نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾»[15].

وقال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [سُورَةُ الإِسْرَاء].

قال ابن كثير: «يخبرُ تعالى عن عجلة الإنسان، ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ أي: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾».

وقال مُحَمَّد رشيد رضا: «فأمَّا استعجالُه بالخير والحسنة فلشدَّة حرصه على منافعه وقلَّة صبره عنها، وأمَّا استعجاله بالضُّرِّ والسَّيِّئة فلا يكون لذاته بل لسبب عارض كالغضب والجهل والعناد والاستهزاء والتَّعجيز، وقلَّما يكون مقصودًا بنفسه إلاَّ للنَّجاة ممَّا هو شرٌّ منه كما يفعل اليائسون من الحياة، أو النَّجاة من ذُلٍّ وخزي أو ألم لا يطاق، إذ يتقحمون المهالك أو يبخعون أنفسهم انتحارًا»[16].

(9) «روضة العقلاء» (ص215).

(10) «مداواة النُّفوس» لابن حزم (ص81).

(11) انظر «التَّحرير والتَّنوير» (17/68).

(12) انظر «أضواء البيان» (4/716).

(13) «تفسير السَّعدي» بتصرُّف (ص523).

(14) «أضواء البيان» (4/ 150).

(15) «تفسير ابن كثير» (5/ 49).

(16) «المنار» (11/ 255).

والآيات في تقرير اجتناب العجلة كثيرةٌ، وكذلك في سنَّة النَّبيِّ ﷺ، وقد بوَّب التِّرمذي بابًا فقال: «باب ما جاء في التَّأنِّي والعجلة»، وأورد فيه حديث عبد الله بن سَرْجَس المُزَني رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «السَّمْتُ الحَسَنُ والتُّؤَدَةُ والاقْتِصَادُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[17].

فالسَّمتُ الحسنُ هو السِّيرَةُ المَرْضيَّةُ والطَّريقة المستحسنة، والتُّؤدة: بضمِّ التَّاء وفتح الهمزة، أي التَّأنِّي في جميع الأمور، والاقتصاد: التَّوسُّط في الأحوال والتَّحرُّز عن طرَفَيْ الإفراط والتَّفريط.

قال الخطَّابي في «معالم السُّنن» (107/4): «يريد أنَّ هذه الخصالَ من شمائل الأنبياء ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ وأنَّها جزءٌ من أجزاء فضائلهم فاقْتَدَوْا بهم فيها وتابعوهم عليها، وليس معناها أنَّ النُّبوَّة تتجزَّأُ ولا أنَّ من جَمَعَ هذه الخصالَ كان نبيًّا؛ فإنَّ النُّبوَّة غيرُ مكتسبة وإنَّما هي كرامةٌ يخُصُّ الله بها من يشاء من عباده».

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لأشجِّ عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ الحِلْمُ وَالأَنَاةُ» رواه مسلم.

وعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ خَيْرٌ إِلاَّ فِي عَمَلِ الآخِرَةِ»[18]، قال المناوي في «التيسير» (931/1): «أي مستحسن محمود إلاَّ في عمل الآخرة؛ فإنَّ الحزْمَ التَّسارعُ إليه ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾».

وكذلك كثُرَ تحذير السَّلف من الوقوع في العجلة؛ منها أنَّ بعضَ الحكماء كتب لأخ له: «ولا تعجل ثمرةً لم تدرك؛ فإنَّك تنالها في أوانها عذبةً، والمدبِّرُ لك أعلم بالوقت الَّذي يصلح فيه، وثق بخيرته لك في أمورك كلِّها، والسَّلام»[19]، وكان يقال: «التَّأنِّي من الله والعجلة من الشَّيطان، وما عجل امرؤ فأصاب واتَّأد آخرُ فأخطأ إلاَّ كان الَّذي اتَّأَدَ أَصْوَبَ رأيًا، ولا عَجِلَ امرؤٌ فأخطأ واتَّأَدَ آخرُ فأخطأ إلاَّ كان الَّذي اتَّأَدَ أيسرَ خطأً»[20]، وعن إبراهيم بن عمر ابن حبيب قال: كان يقال: «لا يُوجَدُ العجولُ محمودًا ولا الغضوبُ مسرورًا»[21]، وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: «لا يزال المرء يجتني من ثمرة العجلة النَّدامة».

وقد قال الشَّاعر:

لا تَعْجَلن لأمرٍ أنت طالبه
فقلَّما يدرك المطلوبَ ذو العجل
فذو التَّأنِّي مصيبٌ في مقاصده
وذو التَّعجُّل لا يخلو عن الزَّلل

والعجلة تشملُ كلَّ ما يريده الإنسان ممَّا يَرْغَبُ فيه أو عنه فهو مطالبٌ بالتَّثبُّت فيه.

○○○

■ ومن مظاهر التعجل الخطيرة:

○ العجلة في تحصيل العلم: لا شكَّ أنَّ العلمَ زين بالمرء، فلا يميِّز بين الضَّار والنَّافع والخير والشَّرِّ إلاَّ بالعلم، قال الحسن: «لولا العلماء لصار النَّاس كالبهائم»، والغاية من العلم هو العمل به فالعلم النَّافع لا يُوَرِّثُ إلاَّ العمل الصَّالح ولذا قال ـ جلَّ جلاله ـ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ]، فالهدى هو العلم النَّافع، والدِّين الحقُّ هو العمل الصَّالح، وممَّا ينبغي لطالب العلم تيقُّنه أنَّ العلم بحرٌ لا ساحلَ له يستحيل على أيٍّ كان أن يدركَهُ كلَّه؛ لأنَّ الَّذي يعلم كلَّ شيءٍ هو خالقُ كلِّ شيء ـ سبحانه وتعالى ـ، ولذا قال أبو يوسف القاضي رحمه الله: «العلم شيءٌ لا يعطيك بعضَه حتَّى تعطيَهُ كُلَّك، وأنت إذا أعطيتَه كلَّكَ من إعطائه البعضَ على غرر»[22]، يعني لو تفرَّغت للعلم وجعلته شغلك الشَّاغل فقد لا يتهيَّأ لك إلاَّ القليل من العلم، وقد لا تظفر حتَّى بذلك القليل إلاَّ أن يرزقك الله ويمنَّ عليك به.

فلا يذوقُ حلاوةَ العلم ويجني مليحَ ثماره ويظفر بجميل آثاره إلاَّ مَنْ عانى دوامَ الطَّلب رفيقًا متأنِّيًا في ذلك صبورًا عليه، قال عبد الله بن المُعتزِّ: «إنْ لم تدرك الحاجةَ بالرِّفق والدَّوام فبأيِّ شيءٍ تدركُها!»[23].

ولذلك كان أبعدُ النَّاس عن بركة العلم الَّذي يَرْمي لطلبه بسرعة ويتكلَّف استيعابه في أوجز وقت ويتعجَّل ثَمَرَة العلم قبل أوانها فيتزبَّب قبل أن يتحصرم، وعلى ما وصفت فئام من النَّاس ما يلبث أن يطلب العلم حتَّى تراه شغوفا بالفتوى مشتهيًا للتَّرأُّس محبًّا لتصدُّر المجالس قاصدًا الظُّهور على الأقران، مستشْرفًا للحكم على النَّاس، فنجم عن ذلك فسادٌ عريضٌ على العلم وأهله وتُقوِّل على الله بلا علم، وقد كان السَّلف ـ رحمهم الله ـ من أَوْرَعِ النَّاس وأَبْعَدهمْ عن ذلك وأشدُّهم تحذيرًا من التَّعجُّل في العلم

(17) التِّرمذي (2010) وحسنه الألباني.
(18) رواه أبو داود في «سننه» (4812)، وصحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (1794).
(19) «إصلاح المال» لابن أبي الدُّنيا (486).
(20) «المدخل إلى السُّنن» للبيهقي (817).
(21) «روضة العقلاء» (ص217).
(22) «الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع» (252/2).
(23) المصدر السَّابق (263/2).

والتَّعلُّم، قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العجلةُ في الفتوى نوعٌ من الجهل والخرق»، وكان الشَّعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا جاءه شيءٌ اتَّقاه - أي من الفتوى -، هذا وهو الشَّعبي الَّذي كان يُستَفْتَى والصَّحابة متوافرون كما قال ابن سيرين، وقال فيه أبو مجلز: «ما رأيتُ أحدًا أَفْقَهَ من الشَّعبي؛ لا سعيد بن المسيَّب ولا طاوس ولا عطاء ولا الحسن ولا ابن سيرين»، فكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ منبَسِطًا فإذا وقعت الفتوى انقبضَ، والآثار عن السَّلف في هذا الباب كثيرةٌ، والمقصود أنَّ هذا النَّوع من المنتسبين للعلم يعامَلُ بنقيض قصده فسرعان ما تَنْحَطُّ همَّتُه وتتضجَّر نفسه فيمجُّ ذلك العلم اليسير الَّذي حصَّله، وصدق الزهري لمَّا قال: «إنَّ هذا العلم إن أخذته بالمكابرة له غلبك، ولكن خُذْهُ مع الأيَّام واللَّيالي أخذًا رفيقًا تَظْفَرْ به»(24).

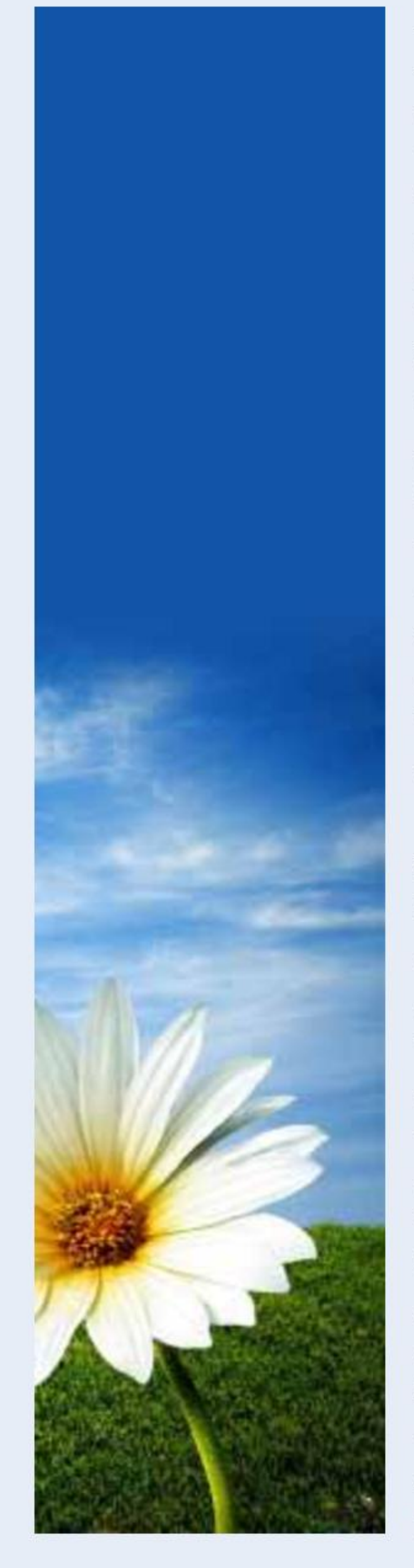
فالآخذ بهذه الوصيَّة بصدق تجدُه متأنِّيًا وَقُورًا حريصًا على التَّخلُّق بأخلاق السَّلف بعيدًا عن التَّكلُّف معتَنيًا بما ينفعه في الآخرة، «فالله يحبُّ مَنْ عنده العلم والأناة فلا يعجل بل يثبت حتَّى يعلمَ ويستيقنَ ما ورد عليه ولا يعجل بأمرٍ منْ قبل استحكامه، فالعجلة والطَّيش من الشَّيطان».

○ العجلة في الدَّعوة إلى الله:

والدَّعوة إلى الله من أهمِّ ما حثَّ وحرَّض عليه الشَّرع؛ لما فيه من نشرٍ للخير بين النَّاس وكفِّهم عن الشَّرِّ ولذا كانت من أعظم أسباب الفلاح كما قال - جلَّ جلاله -: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ]، وثمرة الدَّعوة إلى الله لا تتأتَّى إلاَّ مع الصَّبر والتَّأنِّي والبعد عن الاستعجال والخفَّة أو استبطاء استجابة النَّاس للحقِّ، ولذا علَّم النَّبيُّ ﷺ أصحابَه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ التَّحلِّي بالأناة، وزجرهم لمَّا استعجلوا فَتْحَ الله - سبحانه وتعالى - عليهم ممَّا كانوا يعانون من ضيق وأذًى من قريش، ففي «البخاري» عن خبَّاب بن الأرت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بُرْدَةً له في ظلِّ الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا ثُمَّ يُؤْتَى بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلاَّ اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، لَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».

ولك أن تتعجَّب من صبر النَّبيِّ ﷺ وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وتأنِّيهم، وهم ثُلة قليلةُ العدد بين صناديد قريش، فلم يَمْضِ رُبْعُ قَرْنٍ من الزَّمن حتَّى غدت الجيوش الإسلاميَّة تَهُزُّ أركانَ فارسَ والرُّوم! فيا ليت المنتسبين للدَّعوة من أهل الإسلام يتَّعظُون بما كان عليه النَّبيُّ ﷺ وصحبه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في بداية أمرهم وكيف آل بهم الحال حتَّى صارَ الصَّحبُ الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ قادةَ الدُّنيا وأئمَّةَ النَّاس في مُدَّة وجيزة لا تزيد عن ثُلُثَيْ قرنٍ من هجرة النَّبيِّ ﷺ، بل نَجِدُ انعدام الأناة في المشتغلين بالدَّعوة إلى الله والسُّرعة والطَّيش في إنزال الأحكام والخفَّة في اتِّخاذ القرارات الَّتي تتعلَّق بها مصير أمَّة بكمالها والله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ

(24) «الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع» (157/1).



﴿مِنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]، قال السَّعدي: «هذا تأديبٌ من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنَّه ينبغي لهم إذا جاءهم أمرٌ من الأمور المهمَّة والمصالح العامَّة ما يتعلَّق بالأمن وسرور المؤمنين أو بالخوف الَّذي فيه مصيبةٌ، عليهم أن يتثبَّتُوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردُّونه إلى الرَّسول وإلى أولي الأمر منهم، أهلِ الرَّأي والعلم والنُّصح والعقل والرَّزانة، الَّذين يعرفون الأمورَ ويعرفون المصالح وضدَّها، فإنْ رأَوْا في إذاعته مصلحةً ونشاطًا للمؤمنين وسرورًا لهم وتحرُّزًا من أعدائهم فعلوا ذلك، وإن رأَوْا أنَّه ليس فيه مصلحة أو فيه مصلحةٌ ولكن مضرَّتُه تزيد على مصلحته لم يذيعوه، ولهذا قال ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السَّديدة وعلومهم الرَّشيدة»، وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه النَّهي عن العجلة والتَّسرُّع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتَّأمُّل قبل الكلام والنَّظر فيه هل هو مصلحةٌ، فيُقْدِم عليه الإنسان؟ أم لا فيحجم عنه؟»[25].

وممَّا يتَّصفُ به هؤلاء كذلك من ثمار العجلة: استبطاء نزول العقاب على الأعداء، على أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد نهى عن العجلة في ذلك، فلمَّا استهزأ المشركون بنبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ [سُورَةُ الأَنبِيَاءِ] وذلك أنَّ استهزاءَ المشركين بالنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هيَّج حنق المسلمين عليهم فودُّوا أن ينزل الله بالمكذِّبين الوعيد عاجلًا فخوطبوا بالتَّريُّث وأن لا يستعجلوا ربَّهم؛ لأنَّه أعلمُ بمقتضى الحكمة في توقيت حلولِ الوعيد وما في تأخير نزوله من المصالح للدِّين، فنجم عمَّا تقدَّم وغيره انحرافٌ عن المنهج النَّبويِّ في هذا الباب فزاد الطِّينَ بلَّةً والمرض علَّةً فظهرت الفتن وتكاثرت وضُيِّقَ على الدَّعوة الإسلاميَّة واضطهد الدُّعاة الصَّادقون في تلك البلاد، بل دخلت الفتنة من أقطارها كما حدث ويحدث في كثير من بلاد الإسلام الآن، وإن تعجبْ فاعجبْ من هؤلاء القوم كيف جعلوا هذه الأحداث المظلمة والفتن المدلهمَّة ربيعًا!! وقد صدق الشَّاعر لمَّا قال:

إنَّ الأمور إذا الأحداث دبَّرها

دون الشُّيوخ ترى في سيرها الخللا

ولا شكَّ أنَّ هذا ما يرجوه الأعداء ويفرحون به، فالله المستعان وعليه التُّكلان.

○○○

○ بعض أسباب البعد عن العجلة:

ممَّا يُستعَان على التَّأنِّي والبعد عن العجلة أمور:

ـ أن يديم المرءُ ذكر الله واستغفاره؛ فإنَّ العجلة من وسوسة الشَّيطان وشؤم النَّفس وكثرة السَّقطات، وينبغي له أن يلتجئ إلى الله بالدُّعاء في أن يمُنَّ عليه بالتَّروِّي والتُّؤَدَة في شؤونه، وأن يتفضَّل عليه بالثَّبات والرَّشاد في أحواله.

ـ أن يعوِّد المرءُ نفسه على المشاورة والاستخارة، فيستشير من له خبرةٌ بما سيُقدِم عليه ويستخير الله في ذلك وقد قيل: «جُعِلَ الصَّواب مع المشاورة»، ولا ينبغي للإنسان أن يكون مُعجَبًا برأيه وإلاَّ فقد تَمَّتْ خسارته.

ـ أن يروِّض نفسَه الثَّبات عند بداية الأمور، «فمن ثبت عند صدمة البداآت استقبل أمره بعلم وحزم، ومن لم يثبت لها استقبله بعجلة وطَيْش وعاقبته النَّدامة، وعاقبة الأوَّل حَمْدُ أمره... ولهذا في الدُّعاء الَّذي رواه الإمام أحمد والنَّسائي عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ والعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ» وهاتان الكلمتان هُمَا جماع الفلاح، وما أُتِيَ العبد إلاَّ من تضييعهما أو تضييع أحدهما، فما أُتِيَ أحدٌ إلاَّ من باب العجلة والطَّيش واستفزاز البداآت له أو من باب التَّهاون والتَّماوت وتضييع الفرصة بعد مواتاتها، فإذا حصل الثَّبات أوَّلاً والعزيمة ثانيًا أفلحَ كلَّ الفلاح، والله وليُّ التَّوفيق»[26].

ـ أن يتأمَّل في عواقب أمِّ النَّدامات وأنَّ المُتعجِّل دائمُ الخسران، «فالعَجِلُ يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يُجَرِّبَ، ويَذُمُّ بعد ما يَحْمَدُ، يعزم قبل أن يفكِّر، ويمضي قبل أن يعزم، والعَجِلُ تصحبه النَّدامة وتعتزله السَّلامة»[27]، وقد قيل: «المتَّئد مصيبٌ وإن هلك، والعجول مخطئٌ وإن مَلَك»، وقيل: «الرَّافق لا يكاد يسبق كما أنَّ العَجِلَ لا يكاد يَلْحَق».

○○○

○ بيان أنَّ النَّهي عن العجلة ليس من تكليف ما لا يطاق:

قال الشَّنقيطي: «واعلم أنَّه لا إشكال في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾

---

(25) «تفسير السَّعدي» (190).

(26) «مفتاح دار السَّعادة» (1/ 445).

(27) «روضة العقلاء» (ص216).

مع قولــه: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ فــلا يقال: كيــف يقول: إنَّ الإنســان خُلقَ مــن العَجَل وجُبلَ عليــه، ثمَّ ينهاه عمَّا خُلقَ منه وجُبلَ عليه؛ لأنَّه تكليــفٌ بمحال؟ لأنَّا نقول: نعم هو جُبلَ على العَجَل، ولكن في اســتطاعته أن يلــزم نفســه بالتَّــأنِّي، كمــا أنَّــه جُبلَ على حبِّ الشَّــهوات مع أنَّه في اســتطاعته أن يلــزم نفسَــهُ بالكَــفِّ عنهــا، كمــا قال تعــالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ]»[28].

ooo

○ الفرق بــين العجلة والمبادرة بالطَّاعة:

وليعلم المســلم أنَّ التَّحذير من العجلة في الأمــور غــير المبــادرة للصَّــالحات والمســارعة في الخيرات، فالأولى مذمومةٌ والثَّانيــة ممدوحــة، ذلــك «أنَّ المبــادرة انتهازُ الفرصــة في وقتهــا ولا يتركها حتَّى إذا فاتــت طلبها، فهــو لا يطلب الأمور في أدبارها ولا قبل وقتها؛ بل إذا حضر وقتها بادر إليهــا ووثب عليها وُثوبَ الأســد على فريســته، فهو بمنزلة من يبــادر إلى أخذ الثَّمَــرَة وقــت كمــال نضــجها وإدراكهــا، والعجلــة طلب أخذ الشَّــيء قبل وقته فهو لشــدَّة حرصــه عليــه بمنزلــة مــن يأخذ الثَّمَــرَة قبل أوان إدراكهــا كلِّهَا، فالمبادرة وســط بــين خُلُقَــيْن مذمومَــيْن، أحدهما التَّفريط والإضــاعة، والثَّاني الاســتعجال قبــل الوقــت، ولهــذا كانــت العجلــة مــن الشَّــيطان؛ فإنَّهــا خفَّة وطَيْش وحدَّة في العبــد تمنعه من التَّثَبُّــت والوقار والحلم، وتوجب له وضعَ الأشياء في غير مواضعها وتجلــب عليــه أنواعًا من الشُّــرور وتمنعه أنواعًا من الخير، وهي قرينُ النَّدامة فقلَّ من اســتعجل إلاَّ ندم كما أنَّ الكسل قرين الفوت والإضاعة»[29].

وقد يتوهَّم شخصٌ أنَّ العجلةَ مدحها الله ـ ســبحانه وتعالى ـ في القرآن في قوله: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [سُورَةُ طه]، وأنَّ الَّــذي دعا إليها أمــرٌ محمود؛ وهو رضــا الله ـ عــزَّ وجل ـ، وســواءٌ كان المراد من تَعَجُّل موسى عليه السلام ليحضر مناجاة ربِّه قبل الوقت الَّذي عيَّنَهُ لــه الله عــزَّ وجلَّ ـ كما رجَّحــه البعض ـ أو كان المــراد بالتَّعجيــل أي تَقَدُّمَهُ عليهم لا الإتيــان قبــل تمام الميعاد المضــروب ـ كما رجَّحــه آخــرون ـ، فليعلــم أنَّ الاســتفهام مُسْــتَعْمَلٌ في اللَّوم، فموســى عليه السلام تعَجَّل اجتهــادًا منه ولم يراعِ في ذلك إلاَّ السَّــبق إلى ما فيه خيرٌ لنفسه ولقومه، فلامه الله علــى أن غَفَلَ عن مراعاة مــا يَحُفُّ بذلك من ابتعاده عن قومه قبل أن يُوصيَهُمُ الله بالمحافظــة على العهد ويحذِّرَهم مَكْرَ من يتوسَّــم فيه مَكرًا، ففيه إنكارُ أصل الفعل؛ لأنَّ العجلةَ نقيصــةٌ في نفســها فكيف من أولي العزم اللاَّئق بهم مزيدُ الحزم![30]

وما أحسنَ ما قاله حاتم الأصمُّ رحمه الله: «العجلةُ من الشَّــيطان إلاَّ في خمسة فإنَّها من سُنَّة رســول الله صلى الله عليه وسلم: إطعام الضَّيف وتجهيز الميِّت وتزويج البكر وقضاء الدَّين والتَّوبة من الذَّنب».

وصــلَّى الله علــى مُحَمَّــد وعلــى آلــه وصحبه وسلَّم.

ooo



---

(28) «أضواء البيان» (4/ 152).

(29) «الرُّوح» (ص258).

(30) انظر «تفسير الألوسي» (8/ 552)، «التَّحرير والتَّنوير» (16/ 277).



الفرقان

بين المتصدِّقين والمُرَابِين




أ.د. عبد الرزاق البدر
المدرِّس بالمسجد النبوي

صنفان من النَّاس أحدهما مباركٌ على مجتمعه وخيرٌ على موطنه وبلده، والآخر آفة من الآفات ووباءٌ عظيم وشرٌّ مستطير؛ إنَّهما المتصدِّق والمرابي.

فأمَّا المتصدِّق فهو من يعطي المال ولا يأخذ عليه عوضًا، وإنَّما يعطيه لأهل الحاجة والضَّعف والفقر احتسابًا ورجاءً لثواب الله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [سُورَةُ الإِنسَانِ].

وأمَّا المرابي فإنَّه على العكس من ذلك؛ يأخذ المال من الضُّعفاء والمحتاجين مستغلاًّ حاجتهم وضعفهم، يأخذه منهم بغير عوَض ظلمًا وجشعًا وعدوانًا.

والله جلَّ وعلا في كتابه العظيم بيَّن حال هؤلاء وحال هؤلاء ومآل هؤلاء ومآل هؤلاء؛ ليعتبر من أراد لنفسه العبرة وليتَّعظ من وفَّقه الله جلَّ وعلا للاتِّعاظ.

يقول الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: 276]؛ إنَّ المال الَّذي يأخذه المرابي قلَّ أو كثُر مالٌ ممحوق البركة ومآله وعاقبته إلى قلَّة، وقد صحَّ في الحديث عن نبيِّنا ﷺ أنَّه قال: «مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنَ الرِّبَا إِلاَّ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَى قِلَّةٍ» رواه ابن ماجة (2279)، وأمَّا المتصدِّق فإنَّه يلقى بركة صدقته نماءً ورفعةً وخيرًا وبركة في الدُّنيا والآخرة حتَّى وإن كان الَّذي تصدَّق به مالاً قليلاً: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

حتَّى لو كان الَّذي تصدَّق به عدل تمرة فإنَّ الله عزَّ وجلَّ، كما جاء في الحديث، يربِّيها له كما يربي أحدنا فَصيله حتَّى تكون يوم القيامة مثل الجبل.

ومن بيان القرآن العظيم لحال هؤلاء وحال هؤلاء قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ]؛ فذكر جلَّ وعلا في هذا السِّياق المبارك أنَّ الرِّبا ضدُّ الصَّدقة، وأنَّ المرابين ضدُّ المتصدِّقين، وتوعَّد المرابين بالنَّار، ثمَّ ذكر جلَّ وعلا الجنَّة الَّتي عرضها كعرض السَّماوات والأرض، وأنَّها أعدَّت للمتَّقين، وذكر من صفتهم أنَّهم ينفقون في السرَّاء والضرَّاء؛ أي أنَّهم أهل بذل وصدقة وإنفاق وسخاء؛ وهذا فيه ذكرٌ لعقوبة المرابي عند الله جلَّ وعلا وذكرٌ لثواب المتصدِّقين.

ومن عقوبة المرابي عند الله جلَّ وعلا ما ذكره الله في قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: 276]؛ قال

غير واحـد من المفسّـرين: إنَّ هـذا بيانٌ لحال المرابي يوم يقوم من قبره وأنَّه يقوم علـى هذه الصِّـفة؛ على صـفة المصـروع الَّذي يتخبَّطه الشَّـيطان من المس، فيقوم مثقلاً مُثخنًـا بتلك الأمـوال الربويَّة الَّتي ملأ بها جوفه وبطنه فأثقلته وجعلته بهذه الحال البئيسة.

فشـتَّان بين هذا وبين من قـال النَّبيُّ ﷺ عنهـم: «كُلُّ امْـرِئٍ فِي ظِـلِّ صَـدَقَتِهِ حَتَّـى يُفْصَـلَ بَـيْنَ النَّـاسِ» رواه أحمـد (17333)، ذاك يقـوم كمـا يقـوم الَّـذي يتخبَّطه الشَّـيطان من المس، وأمَّا المتصـدِّق فإنَّه يقوم قومـةً مباركة في ظلِّ صدقته إلى أن يُقضى بين النَّاس.

ومن عقوبة المرابي ما جاء في «صحيح البخـاري» (7047) أنَّ النَّبـيَّ ﷺ ذكـر فيمـا رآه في المنـام في حديـث طويـل أنَّه رأى ﷺ ذلـك الرَّجل الَّذي يسـبح في نهر مثل الدَّم وأنَّه يسبح ما شاء الله أن يسبح ثـمَّ إذا جاء إلى شـطِّ النَّهـر ليخرج وإذا برجل قائم على شـطِّ النَّهـر فإذا اقترب ألقمه حجرًا، وهو على هذه الحال في هذه العقوبة الَّتي يعاقَب بها بعد موته؛ فشـتَّان بين هذه الحال البئيسـة وحال المتصـدِّق فيمـا ذكـره الله جلَّ وعـلا له مـن ثواب عظيـم وأجر جزيـل وخـيرات عميمة في الدُّنيا والآخرة.

والمرابون فيهم شبَهٌ من اليهود الَّذين ذكرهم الله سبحانه وتعالى بهذه الصِّفة حيـث قـال: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ﴾ [النِّسَاء: 161]، وفيهم شـبَه بالكفَّار المشركين، ونبيُّنا ﷺ لَّما خطب النَّـاس في حجَّة الوداع أبطل كلَّ ربا الجاهليَّة فقال ﷺ: «إِنَّ كُلَّ رِبًا مِنْ رِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ»، فجاء الإسلام بنقض الرِّبـا إبطالـه والتَّحذير منـه، فمن وفَّقه الله عزَّ وجلَّ للسَّـلامة منـه والعافية فقد عافـاه الله تبارك وتعـالى، وأمَّا من تلوَّث به وتلطَّخ فإنَّ حاله في تلطُّخه بالرِّبا يكون فيه شبهٌ من اليهود وشـبهٌ من المشركين، وقـد قـال النَّبـيُّ ﷺ محـذِّرًا ومنـذرًا: «لَتَتَّبِعُنَّ سَـنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِـبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِـذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَـبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ» متَّفقٌ عليه.

إنَّ المتصـدِّق رجلٌ عمَرَ الله سـبحانه وتعـالى قلبـه بالرَّحمـة والشَّـفقة علـى الفقراء والمحتاجين، فـإذا وجد حاجةً أو ضـعفًا أو شـدةً أو فقرًا أقبل بماله سخيةً بـه نفسـه، بـاذلاً في سـبيل الله، منتظرًا علـى ذلـك موعـود الله جلَّ وعـلا وأجره الكـريم وثوابـه العظيم، بخـلاف المرابي فإنَّـه إذا رأى الحاجة في النَّاس اشـتدَّت تحرُّك جشـعًا وطمعًا وقـدَّم لهم من المال شـريطة أن يكـون منهم العوض أضـعافًا مضـاعفة، ولاسـيما إذا ازدادت المـدَّة وامتـدَّ الزَّمن لا يبالي بضـعف الفقير ولا بحاجـة المحتاج، نُزعت مـن قلبه الرَّحمة والشَّفقة، والنَّبيُّ ﷺ يقول فيما صحَّ عنه: «لاَ يَرْحَـمُ اللهُ مَنْ لاَ يَرْحَـمُ النَّاسَ» مُتَّفقٌ عليه، وذكر ﷺ أنَّ الشـقيَّ من النَّاس من انتُزعت من قلبه الرَّحمة، بينما المتصدِّق في مثـل هـذه الحال يقبـل بنفس سـخيَّة وبـذل وجود وكـرَم، وإنَّ تلك الأموال الَّتي يحصِّـلها المرابي أمـوالٌ لا بركة فيها ولا خير، وأمَّا المتصدِّق فإنَّ صدقته وإن قلَّت تكون أضـعافًا مضـاعفة؛ أجورًا وخيرات وبركات في الدُّنيا والآخرة.

إنَّ مـن يتأمَّل حال المرابي في مجتمعه يجد أنَّ نظرة النَّاس إليه هي نظرة مبغض لما قام في قلبه من جشـع وهلع وطمع، فهو في مجتمعـه ممقوت لدى النَّاس؛ تبغضـه القلـوب وتكرهـه النُّفوس وتشـمئزُّ مـن تصـرُّفاته وأعماله، بخـلاف المنفق فإنَّه محبوبٌ عند الله ومحبوب عند عباده.

المرابـي ليـس لـه في مراباتـه إلاَّ نيـل الدُّعـاء مـن النَّاس علـى ظلمه لهم واسـتغلاله لضعفهم وحاجتهـم، وأمَّـا المتصـدِّق فله الدَّعوات المباركات والثَّناء الجميـل والذِّكـر العطـر لقـاء إحسـانه وجزاء برِّه وكرمه.

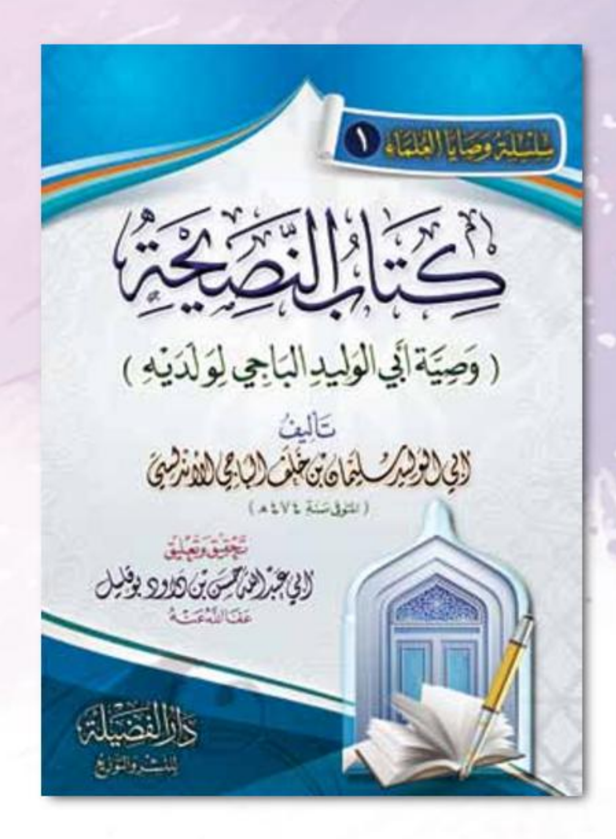
وقـد ثبـت في الحديث الصَّـحيح عن نبيِّنا الكـريم ﷺ أنَّ العبـد إذا وقف يوم القيامـة بين يدي الله يُسـأل سـؤاليْن عن ماله: من أين اكتسـبه؟ وفيم أنفقه؟ قال ﷺ: «لا تَـزُولُ قَدَمَـا عَبْـدٍ يَـوْمَ القِيَامَـةِ حَتَّـى يُسْـأَلَ عَنْ أَرْبَـعٍ» وذكر منهـا «عَنْ مَالِـهِ مِـنْ أَيْـنَ اكْتَسَـبَهُ وَفِيـمَ أَنْفَقَـهُ؟» (الترمذي(2417)).

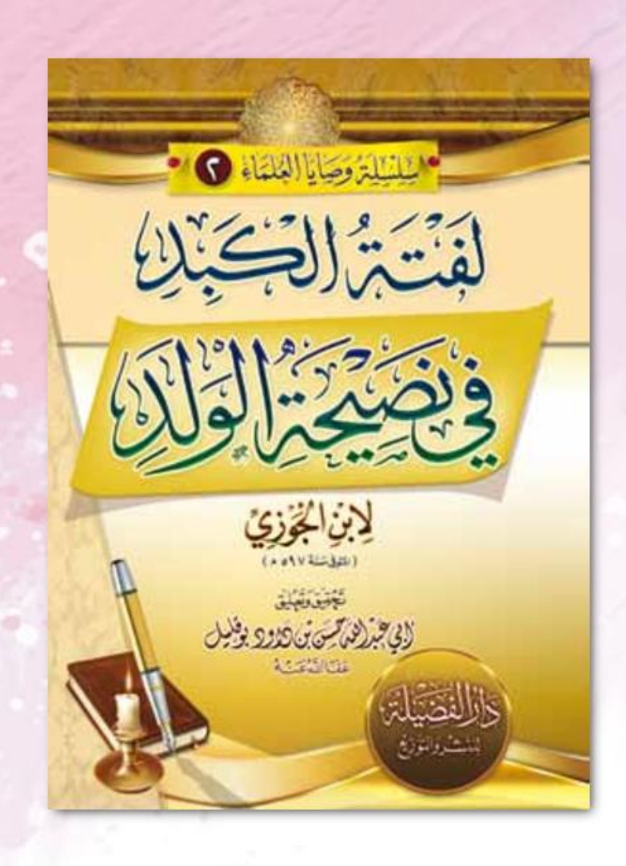
ألا مـا أكرمها من حال وما أطيبه من مآل عندمـا يقف ذلك المتصـدِّق الكريم بين يدي الربِّ العظيم ذي الجلال ويُسأل عن ماله فيكون الجواب: أنَّه اكتسـبه من الوجـوه المباحات، وأنفقه فيمـا أحلَّه الله له إضـافة إلى إنفاقه من أمواله في وجوه البرِّ والإحسـان والصَّـدقات. وما أقبحها من حال وما أسـوأه من مـآل عندما يقف المرابـي بين يـدي الله جـلَّ وعلا ويُسـأل عن مالـه فإذا بتلـك الأموال قـد جُمعت مـن الرِّبا وغير ذلك مـن الوجوه المحرَّمة وصُـرفت أيضًـا في الحـرام وما يُسـخط الربَّ جلَّ وعلا.

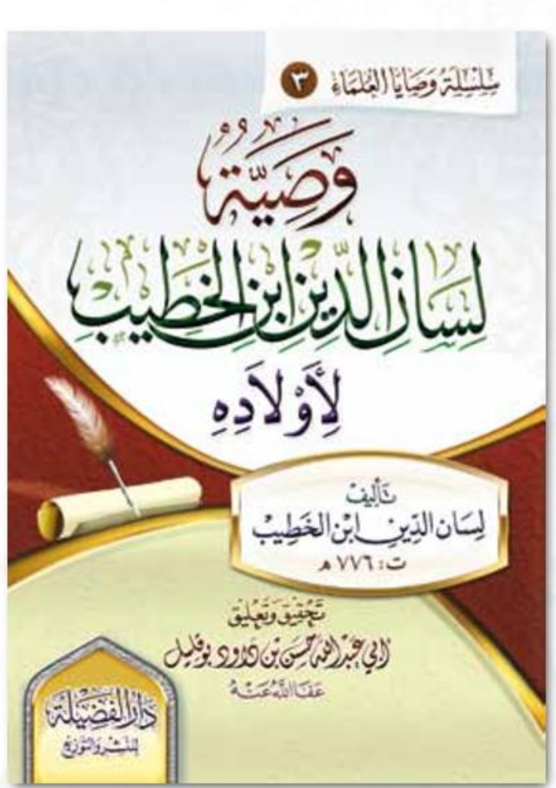
والمقـام لا يسـع ذكـر أكثر مـن هذا، وفيمـا ذُكـر عظـة وعـبرة لمـن وفَّقه الله تبارك وتعـالى للاتِّعـاظ والاعتبار، والله وحده الموفق لا شريك له.

ooo

صدر حديثا عن دار الفضيلة... سلسلة وصايا العلماء









التعاونية العقارية (الإصلاحات) ـ قطعة (44) عين النعجة (بئر خادم). الجزائر

الهاتف والفاكس: 32 08 52 (023) / (جوال): 92 99 06 (0559)

التوزيع (جوال): 08 53 62 (0661)

البريد الإلكتروني:

darelfadhila@hotmail.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:

www.rayatalislah.com

اشتـــرك الآن فـــي مـــجـــلـــة



يرجى إرسال طلب يتضمن الأمور التالية :

الاسم واللقب / العنوان / الهاتف / الوظيفة / وصل الحوالة البريدية

ترسل الحوالة البريدية باسم توفيق عمروني على الحساب البريدي الجاري:

ccp 4142776 clé 96

عنوان المراسلة : دار الفضيلة للنشر والتوزيع

التعاونية العقارية (الإصلاحات) ـ قطعة (44)

عين النعجة (بئر خادم) . الجزائر

مهلكات خفية





إعداد: أسرة التحرير

* قال شيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:

«وقد يكون الرَّجل من أذكياء النَّاس، وأحدُّهم نظرًا، ويعميه عن أظهر الأشياء، وقد يكون من أبلد النَّاس وأضعفهم نظرًا، ويهديه الله لما اختلف فيه من الحقِّ بإذنه، فلا حول ولا قوَّة إلاَّ به، فمن اتَّكل على نظره واستدلاله أو عقله ومعرفته خُذل».

[«درء تعارض العقل والنقل» (9/ 34)]

* قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ:

«إنَّ الدُّخول تحت تكاليف الشَّريعة صعب على النَّفس؛ لأنَّه أمر مخالف للهوى و صادٌّ عن سبيل الشَّهوات؛ لأنَّ الحقَّ ثقيلٌ والنَّفس إنَّما تنشط بما يوافق هواها لا بما يخالفه وكلّ بدعة فالهوى فيها مدخل لأنَّها راجعة إلى نظر مخترعها لا إلى نظر الشَّارع».

[«الاعتصام» (1/ 215)]

* قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

«وأضرُّ ما على المكلَّف الإهمال وترك المحاسبة والاسترسال وتسهيل الأمور وتمشيتها؛ فإنَّ هذا يؤول به إلى الهلاك وهذه حال أهل الغرور يغمض عينه عن العواقب ويمشِّي الحال».

[«إغاثة اللهفان» (1/ 136)]

* قال الشَّيخ الخضر حسين رَحِمَهُ اللهُ:

«فالنُّفوس التي تنحطُّ في المداهنة انحطاط الماء من صبب نفوس لم تشبَّ في مهد الأدبي السُّنِّي ولم تهدها المدرسة إلى الصِّراط السَّوي وما شاعت المداهنة في جماعة إلاَّ تقلَّصت الكرامة من ديارهم وكانت الاستكانة شعارهم ومن ضاعت كرامتهم وداخلت السَّكينة نفوسهم حالت أيدي البغاة في حقوقهم وكانت الموت أقرب إليهم من حبال أوردتهم».

[«موسوعة الاعمال الكاملة» (5/ 230)]

من معين أقوال الإبراهيمي في التَّربية والتَّعليم

❋ قال العلامة البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«السَّبيلُ القَويمُ الَّذي يُؤدِّي إلى حفظِ الجيل الجديدِ من هذه الشُّرور المُتوارَثة، وإلى توثيقِ عُرى الأُخوَّة بينَ أفرادِه، وإلى توحيدِ أفكارِه ومشاربه واتِّجاهاتِه، وإلى تصحيح فهمِه للحَياة، وتسديدِ نظرتِه إليها، وتَشديدِ عزيمَتِه في طَلبها. هُو المدرسَة العَربيَّة الَّتي تصقُل الفكرَ والعَقلَ واللِّسانَ وتُسَيطر عليها، وتوجيه الجيلِ النَّاشئ إلى الإسلام والعَرب، وإلى الشَّرقِ والرُّوحانيَّة، فعَلى هذه المدرسَة يتوقَّف جُزءٌ كبيرٌ من ذلكَ الواجب الثَّقيل، وعليهَا يتَوقَّف حظٌّ كبيرٌ ممَّا نرجُوه لهذَا الجيل؛ وبهذه المدرسَة نستَطيع أن نُبرِّئ ذمَمَنا من حقُوق أبنائنا وأن نُكفِّرَ عن سيِّئاتٍ اجترحَتْها أجيالُنا الماضية».

[«الآثار» (3/ 274)]

❋ وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أي أبنائي المعلِّمين:

إنَّكم في زمَن، كراسي المعلِّمين فيه أجْدَى على الأُمَم من عُرُوش المُلُوك، وأعْوَدُ عليْها بالخَيْر والمنفَعَة، وكراسي المعلِّمين فيه أمْنَعُ جانبًا وأعزُّ قَبيلًا من عُرُوش المُلوك؛ فكَم عَصَفَت العَواصِفُ الفكريَّة بالعُرُوش، ولكنَّها لم تعْصِف يومًا بكُرسيِّ المُعلِّم.

إنَّكم تَجلسُون من كراسي التَّعليم على عُرُوش ممالك، رعايَاها أطفَالُ الأمَّة، فسُوسُوهُم بالرِّفق والإحسَان، وتَدرَّجُوا بهم من مرحَلَة كاملَة في التَّربية إلى مرحَلَة أكمَل، إنَّهم أمانةُ الله عندَكُم، وودَائع الأمَّة بينَ أيديكُم، سلَّمَتْهُم إليكُم أطفَالًا، لتَرُدُّوهم إليْها رجَالًا، وقدَّمَتْهُم إليكُم هيَاكل لتَنفُخُوا فيهَا الرُّوح، وألفَاظًا لتَعْمُروها بالمعَاني، وأوعيةً لتَملأوها بالفَضيلة والمعرفَة.

إنَّكُم رُعَاةٌ، وإنَّكم مسْؤُولُون عن رعيَّتِكُم، وإنَّكُم بُناةٌ، وإنَّ البَاني مسؤُولٌ عمَّا يقَع في البِنَاء من زَيْغٍ أو انحِرَافٍ».

[«الآثار»(2/ 112)]

❋ وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ثُمَّ يجلسُ - أي الشابُّ - في المَدرسَة فَلا يسمَعُ ذكرًا للإسلام، ولا تمجيدًا لمبادئه وعظمائه وتاريخه، ولا يرَى فيها شيئًا من مظاهره، بل لا يسْمَعُ إلَّا تحقيرًا لماضيه وغضًّا من أمجاده؛ إذَا كانَ لا يسمَعُ في مُضْطَرَبه إلَّا هذَا، ولا يَرى إلَّا هذَا؛ فكيفَ نطمَعُ أن ينتَصرَ معَ هذِه الدِّعاياتِ الجارِفَة؟ إنَّنا حينَ نطمَعُ في هذَا لفي غيٍّ بعيد ...».

[«الآثار» (4/ 222)]



❁ أرسلَ إلينا المُحبُّ سليم وينز من ولاية سكيكدة خطابَ شكرٍ وثناءٍ على مجلَّتنا الغرَّاءِ وأسرةِ تحريرِها واقترح معالجةَ موضوعاتٍ ذاتِ أهمِّيَّةٍ، مثل طعون المستشرقين في الإسلام، كما أتحفنا بمشاركة طيِّبة ضمَّنها أقوالاً للعلَّامة ابنِ حزم الظَّاهري رَحِمَهُ اللَّهُ من كتابه «الأخلاق والسِّير»؛ منها:

«لا تَنقُلْ إلى صديقِك ما يُؤلِمُ نفسَه، ولا ينتفعُ بمعرفته فهو فعلُ الأَرْذَال، ولا تَكتُمْهُ ما يَستَضِرُّ بجَهلِه، فهذا فعلُ أهل الشَّرِّ».

فبارك اللهُ فيه وجزاه خيرًا.

❋ ❋ ❋

❁ والشُّكرُ موصولٌ إلى الوفيِّ قعبور خالد من مدينة عين ولمان ولاية سطيف، على ثنائِه على المجلَّة وحسنِ ظنِّه بإخوانه القائمين عليها.

ونبشِّرُه أنَّ عناوينَ الكتبِ والرَّسائلِ الَّتي تَطبَعُها دار الفضيلة مُتوفِّرةٌ في أربع مكتبات في سطيف، وموضوع إفشاءِ السَّلام جديرٌ بالاهتمام والتَّفصيل، واللهُ المُوفِّق والهادي إلى سواء السَّبيلِ.

❋ ❋ ❋

❁ إنَّ ممَّا سَرَّنا وشجَّعنا على المُضيِّ قُدُمًا في طريقِ دَعوَتِنا والاجتهادِ في إخراج مَجلَّتنا اعترافات بعضِ إخواننا المُشتَركين على وصولها في الوقت المناسب؛ منهم المشترك زكريًّا كنيوة من مدينة حاسي مسعود ولاية ورقلة، فقال: «لم أَجِدْ خلالَ عامٍ مُنصَرِمٍ أيَّ تَذبذُبٍ في التَّزوُّد بها، بل إنَّ أعدادًا منها وصلَتْ قبلَ تجديد الاشتراك»، وذكر ـ حفظه الله ـ في خطابه المُرسَل إعجابَه بالمقالات والتَّصميم والإخراج والوصول إلى العدد الخمسين، وهو ليس بالأمرِ السَّهلِ، لولا توفيقُ اللهِ وتسهيلُه.

فجزى اللهُ أخانا زكريًّا خيرَ الجزاء في الدُّنيا والآخرة.

❋ ❋ ❋

❁ ولا ننسى إخوانَنا الكرام من الروينة ولاية عين الدَّفلى، ونسأل اللهَ تعالى أن يثيبَهم على تواصلهم معنا وتشجيعِهم ودعائهم، ولهم منَّا مثلُ ذلك، ونقول لهم أَحَبَّكم اللهُ الَّذي أَحبَبْتُمونا له.

❋ ❋ ❋

❁ أمَّا الأخ المُهندِس عزِّي أحمد الشيرح من مدينة بوسعادة ولاية المسيلة، فنشكرُه على مشاركته بقصيدة شعريَّة، خاطب فيها النِّساءَ وحذَّرهُنَّ ممَّا يدعو إليه دعاةُ حقوق المرأة وتحريرِها، جاء فيها:

علموا بأنَّ حياءكِ سرُّ العُلا
فتواصل الهدَّام بالهدَّام
لم يستسيغوا ثباتَك فتكاتفوا
وتدارسوا: كيف السَّبيلُ الدَّامي

نسأل اللهَ لنا وله مزيدًا من العلم والتَّوفيق.

